

مَجْمَعَةُ الْعَرَبِيَّةِ

جدد حياتك

2



العنوان: جدد حياتك.

المؤلف: الشيخ/ محمد الغزالي .

إشراف عام: داليا محمد إبراهيم .

تاريخ النشر: الطبعة التاسعة أكتوبر 2005م .

رقم الإيداع: 2004/ 1665

الترقيم الدولي: ISBN 977-14-2581-1

الإدارة العامة للنشر: 21 ش أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة
ت: (02) 3466434 - (02) 3472864 فاكس: (02) 3462576 ص.ب: 21 إمبابة
البريد الإلكتروني للإدارة العامة للنشر: publishing@nahdetmisr.com

المطابع: 80 المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر
ت: (02) 8330287 - (02) 8330289 - فاكس: (02) 8330296
البريد الإلكتروني للمطابع: press@nahdetmisr.com

مركز التوزيع الرئيسي: 18 ش كامل صدقي - الفجالة -
القاهرة - ص.ب: 96 الفجالة - القاهرة.
ت: (02) 5909827 - (02) 5908895 - فاكس: (02) 5903395

مركز خدمة العملاء: الرقم المجاني: 08002226222
البريد الإلكتروني لإدارة البيع: sales@nahdetmisr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طريق الحرية (رشدي)
ت: (03) 5462090
مركز التوزيع بالمنصورة: 47 شارع عبد السلام عارف
ت: (050) 2259675

موقع الشركة على الإنترنت: www.nahdetmisr.com
موقع البيع على الإنترنت: www.enahda.com



للطباعة والنشر والتوزيع
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

احصل على أي من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب / CD)
وتمتع بأفضل الخدمات عبر موقع البيع
www.enahda.com

جميع الحقوق محفوظة © لشركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع
لا يجوز طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة
إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

أحبُّ أن ألفت الجاهلين بالإسلام والقاصرين في فقهه إلى الخاصَّة الأولى في هذا الدين ، وهي أنه دين الفطرة .

فتعاليمه المنوَّعة في كل شأن من شؤون الحياة هي نداء الطباع السليمة والأفكار الصحيحة ، وتوجيهاته المبتوثة في أصوله مُتَنَفِّسٌ طَلَّقَ لما تنشده النفوس من كمال ، وتستريح إليه من قرار .

وقد شُغِفْتُ من أمد بعيد ببيان المشابه بين تراث الإسلام المظمور ، وبين ما تنتهى إليه جِلَّةُ المفكرين الأحرار في أغلب النواحي النفسية والاجتماعية والسياسية ، وأحصيتُ من وجوه الاتفاق ما دلَّ على صدق التطابق بين وحي التجربة ووحى السماء .

أجل . فكما تتحد الإجابة السديدة على فم شخصين أُلْقَى إليهما سؤال واحد ، اتحد منطق الطبيعة الإنسانية الصالحة - وهي تتحسَّس طريقها إلى الخير - مع منطق الآيات السماوية ، وهي تهدي الناس جميعاً إلى صراط مستقيم .

ولعلَّ احترامى للإسلام وبقائى عليه يرجعان إلى ما لمستَه بيدي من تجاوبه مع الفِطْرَةَ الراشدة ، فلو لم يكن ديناً من لدُنْ عالم الغيب والشهادة ما وسعنى ولا وسع غيرى أن يخترع أفضل منه فى إقامة صِلاته بالله وبالناس .

ولك أن تشكَّ فى هذا الزعم وتحسبه تطرُّف رجل جامد ، لكن من حقِّى أن أضع بين يديك مقارنات شتى لتنظر فيها ثم تحكم بعدها كيف تشاء .

وكلمة نظرة تتسع لدلالات متباينة ، فقد تختلف طبيعتى وطبيعتك فى الحكم على شىء واحد ، تذهب أنت إلى تحسينه ، وأذهب إلى تقبيحه ، وقد تجنح فيه إلى أقصى اليمين ، وأجنح فيه إلى أقصى اليسار .

فهل هناك ضوابط تمنع هذا التناقض الخطير ؟ .
الجواب أن كلمة فِطْرَة إذا أُطلقت لا يصح أن يراد بها إلا الفطرة السليمة ، فإنَّ كل
خلل يلحق الطبيعة لأى سبب لا يجوز أن يُحسب منها ، ولا أن يُحسب عليها .
خذ مثلاً الجنين . . المفروض أن ينزل من بطن أمه سَوِيَّ الأعضاء والمشاعر .
فلو حدث أن وُلِدَ أعمى لعلَّة في أحد أبويه . فإن هذا العمى عَرَضٌ غريب على
الطبيعة التى يجب أن توجد كاملة .

ومن ثَمَّ فإن هذا لا يغضّ من جعل البصر أصلاً يُقاس عليه ويُطرح ما عداه .
وما يقال فى عالم الحيوان كذلك فى عالم النبات ، فالمفروض أن تُجنى الثمار وهى
نقيّة من كل عيب يجيؤها من عدو الحشرات والديدان .
وعلى الزُّرَّاع أن يستجيدوا البذور ، ويستكملوا الوسائل حتى يحصدوا غراسهم كما
شاء الله لها نقاءً وجمالاً .

وكل تشويه يعترض عظمة الفطرة وروعتها فهو شذوذ ينبغى أن يُذاد ويُباد ، لا أن
يُعترف به ويُسكت عليه .

والمجتمع الإنسانى يجب أن يسير على هذا الغرار .
فأصحاب الصحة النفسية والعقلية ، وأصحاب الأمزجة المعتدلة ، والطباع
المكتملة هم وحدهم الذين يُسمع منهم ويؤخذ عنهم .

أما المعلولون والمنحرفون ، وذوو الأفكار المختلَّة والغرائز المنحلَّة ، فهم كالثمار المعطوبة
فى عالم النبات أو الأجنَّة الشائهة فى عالم الحيوان ، ليسوا أمثلة لسلامة الفطرة ، ولا
يجوز أن يُطمأنَّ إلى أحكامهم ولا إلى آرائهم ، ولو بلغت بهم الجراءة أن يزعموا نداء
الطبيعة ومنطق الفطرة !! .

إنَّ نبيَّ الإسلام لما قال للسائل عن البرِّ : « استَفَّتِ قلبك » ، لم يقدِّم هذا الجواب
هديةً لمجرم يستبيح الدماء ويغتال الحقوق .

وما أكثر الذين تتسع ضمائرهم للكبائر !! .

إنَّه ساق هذا الجواب النبيل لرجل يتحرَّج من الإمام بصغيرة ، رجل سليم الفطرة شفاف الجوهر عاشق للخير ، أراد النبي الكريم أن يريحه من عناء التساؤل والاستفتاء ، فردّه إلى فؤاده يستلهمه الرشد كلما تشابهت أمامه الأمور ، ويستريح إلى إجابته وإن أكثر عليه المفتون ..

هذا الرجل وأمثاله من أصحاب القلوب الكبيرة هم موازين العالم ، ومناراته الهادية .

وعندما تلمح مواريث الأجيال والحضارات المختلفة في الشرق والغرب ترى أصحاب هذه الفطر الراقية يرسلون الحكمة الغالية والوصاة الثمينة ، ويصرفون جهودهم لتقويم الأوضاع إذا اعوجت ، وتقليل الأخطاء إذا شاعت .

ولعمري إن الحياة من غير هؤلاء باطل !! وكم كان جديراً بالعالم أن يؤرّخ لهم بدل أن يؤرّخ للساسنة والقادة من سفاكي الدماء ومذلى الشعوب .



إلى أصحاب هذه الفطر السليمة من كل جنس ولغة نلفت الأنظار لنتفع بهم .

وإلى الدخلاء عليهم من الأدباء المأجورين ، والصحافيين المنحرفين ، وأصحاب الفنون القوادة إلى الخلاعة والعبث نلفت الأنظار كي نحذر على أنفسنا ومستقبلنا .

فقد كثر في الدنيا من يدعو إلى تعرية الأجسام والأرواح من لباس التقوى والفضيلة باسم أن ذلك عود إلى الطبيعة وتمشّ مع الفطرة !! .

والحقُّ أنَّ دَوْر هؤلاء بين الناس هو دَوْر الجراثيم « الفطرية » في إعطاب الثمار وإمراض الأبدان ، أى أنهم خطر على الطبيعة الصحيحة والفطرة السليمة .



وإذا شرحنا وظيفة الفطرة السليمة في تعرّف الحق وتعريفه فيجدد بنا أن ننبّه إلى أمر آخر ، هو أنَّ كثرة البضاعة من نصوص السماء لا تُغنى فتيلاً في نفع صاحبها ، أو في نفع الناس بما عنده إذا كان مُلتاث الطبيعة مريض الفطرة .

ما قيمة المنظار المقرَّب أو المكبَّر لدى امرئ فقد بصره؟! .

إنَّ فقدان البصيرة الواعية اللَّمَّاحة حجاب طامس دون فهم الحق بَلَّه تفهيمه .
وأفة الأديان جاءت من أنَّ أكثر رجالها لا يصلحون ابتداءً لإدراك رسالتها ، كما لا
يصلح المصدور للكرِّ والفرِّ في ميدان القتال .

وقد رأيتُ رجالاً حظوظهم من تراث النبيِّين قليل ، ومحفوظهم من توجيهات
السماء لا يذكر ، ومع ذلك فقد كان صفاء فطرتهم هادياً لا يضل في معرفة الله ، وما
يجب له ، وما يجب على الناس أن يصنعوه كي يحيوا على أرضه أبراراً أتقياء .

وصحيح أن هؤلاء لم يؤدوا المراسيم الدينية بالدقَّة التي نزلت بها ، وعذرهم أن فُرِّصَ
الأداء لم تُتَّح لهم ؛ لأن رسالاتِ الله لم تعرِّضْ عليهم عرضاً يُغرى بقبولها والدخول فيها .
ولعلَّ هؤلاء أحسن حالاً وأرجى مالاً من أناس مُكَّنوا من هدايات الله تمكيناً
كاملاً ؛ فبدلاً من أن ترتفع بهم هبطوا بها .

إن التاريخ سجَّل هزائم كثيرة للطوائف التي تُسمَّى رجالَ الدين .

وقد أراد بعض الحمقى أن يحوِّل هذه الهزائم إلى نكبة تحيق بالدين نفسه ، وهذا
ظلم شنيع ، فإنَّ انهزام هذه الأمثلة المصطنعة للتدثُّين هو في حقيقته انتصار للفطرة
الإنسانية ، للطبيعة المتمردة على الغباء والجمود والنفاق .

إنَّ هذا الانتصار يجب أن يكون تمهيداً لفهم الدين كما جاء من عند الله ، لا لنبذه
بعد ما لوَّثته أيدي الباعة التافهين .

وللدين صورة متَّسِّقَةٌ تنتظم فيها الملامح والمشاعر والنَّسب والأضواء ، ولهذه الصورة
وضع واحد يبرز فيها « الرأس » وهو عالٍ ، وتبدو الحواس والأطراف كلُّ في مكانه
العتيد لا يعدوه إلى غيره .

وصاحب الفطرة السليمة وحده هو الذي تستقر في ذهنه صورة الدين على هذا
النحو المبين .

أما مع اضطراب البصيرة وفساد الدُّوق فإنك ستجد من يعرض عليك الدين
مشوشاً مشوَّهاً ، يتجاور فيه الرأس والقدم ، وتنخلع الأطراف والحواس من مكانها
لتوضع العين في اليد بدل مستقرها في الوجه !! .

إن هذه الفوضى في فقه النصوص ليست إلا ضرباً من تحريف الكلم عن مواضعه ، وهو المرض الذى أفسد الديانتين السابقتين اليهودية والنصرانية .

وربما تُعجزنا حماية الدين من أصحاب الفطر العليلة ، فالحلّ الوحيد أن يتقدّم أصحاب الفطر السليمة ليؤدّوا واجبهم .

وبهذا الحل تتحقق فائدتان جليلتان :

أولاهما : أن ينتفع أولئك الأصفياء بما شرع الله لعباده ، فإنّ العقل مهما سما لن يستغنى عن النقل ، كما أن الذكاء لا يستغنى عن قواعد العلوم وفنون المعرفة .

وأخراهما : أن تنتفع حقائق الدين بمن يُحسن فهمها وعرضها غير مشوبة ولا مضطربة ، فإن الفقه فى الدين حكمة لا يؤتاها كل إنسان ، فليتعرض لها من لديهم استعداد خاص .

والإسلام دين لا تحتكر الكلام فيه والإبانة عنه طائفة معينة ، اللهم إلا من تؤهلهم دراساتهم المحترمة وسعتهم الروحية والفكرية لذلك ، وقد رضى الأزهر أن يقوم على رئاسة مجلته منذ أنشئت إلى اليوم رجال من هذا النوع الكريم ، ولو لم يكونوا من علمائه الرسميين .

وحسن التصوّر لحقائق الدين - كما وردت - لا بدّ أن تكون إلى جانبه ضميمة أخرى هي صدق العمل بها . فإن علاج مشكلات الناس وأدوائهم لا يقدر عليه إلاّ رجل حلّ مشكلات نفسه ، وداوى عللها بالحقائق الدينية التى يعرضها .

وقد تُمارى فى ضرورة ذلك وتقول : رُبّ حامل فقه ليس بفقيه . . رُبّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه !! .

وأقول : إنّ حَمَلَةَ الأدوية التى ينفعون بها ولا ينتفعون منها موجودون فى الحياة فعلاً .

وفى الحياة كذلك أثبت الطب أن هناك من يحمل جراثيم الأمراض ولا يعتلّ لظروف معقّدة فى بدنه ، تجعله ينقل العدوى إلى الآخرين ، ويبقى هو معافى لا تصرعه العلة التى قد يصرع بها غيره !! .

على أنّ الأحوال الشاذة التى توجد فيها قصة « حامل الميكروب » لا تسوّغ وجود الجهّال الذين يحملون العلم ، والسفهاء الذين ينقلون الرشد .

وقد ندّد القرآن أشد التنديد بهذه الدوابّ الناقلة فقال :

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حَمَلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ

لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ
اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١)

والحق أن المثل العلي لا يضيرها شيء كأن يكون نقلتها أول الناس خروجًا عليها .
إنّ هذا وحده مطعن يكفى للصدّ عنها وإهدار الثقة بها .

وفي أيامنا هذه تحوّلت وثيقة حقوق الإنسان التي وضعتها المحافل الدولية إلى خرافة
تحوطها السخرية والزراية ، لأن الدول التي صدّقت عليها مرّقتها شر ممزق !! لا ، بل
إنها لم تتناولها لتمزّقها ، لقد أنفت أن تمد اليد لتناولها فتركتها تسقط تحت الأقدام ،
لتلقى مصيرها في الرّغام .

إن الإنسان بفطرته قد يعرف الحقيقة ، فالحلال بيّن ، والحرام بيّن .

بيّد أن هذه المعرفة لا قيمة لها إن لم نحلّ الحلال ، ونحرّم الحرام ، وإن لم تقفنا
الحدود الفاصلة بين الفضيلة والرذيلة والعدالة والعدوان .

وحَمَلَةُ الفقه الذين لا فقه لهم قد يدلّوننا على الحقيقة ، إلا أنهم لا يستطيعون
الأخذ بأيدينا إليها ، بل إنّ جملة الحقائق التي يدلّوننا عليها محصورة في نطاق ضيق
جدًا . فإن تفاصيل الخير وأساليب الانطباع به والمران عليه لا يحسن تصوّرها ولا
تصويرها إلا رجال لهم في تربية أنفسهم باع طويل أو قصير ، وجهد فاشل أو ناجح .
أما النّقَلَةُ الذين يقومون بدور عربات البضاعة أو دوابّ الحمل فهم منفيّون ابتداءً من
ميادين التهذيب والتأديب .



إن كتلاً كثيفة من البشر لا تزال بعيدة عن الإسلام ، لأنها تجهل تعاليمه جهلاً
مطبّقاً ، ومن ثمّ فهي لا تطلب إليه سبيلاً ولا تلتمس منه نوراً . والإسلام هو الفطرة
التي جاء محمد بن عبد الله ﷺ يجلو صفحتها ، ويظهر رواءها ، ويعود بالبشر إليها
بعد أن اجتالتهم الشياطين عنها .

(١) الآية : ٥ من سورة الجمعة .

ومن محمد بن عبد الله بهذا المنهج الزكىّ يؤيد موسى الذى كفر به اليهود ، ويؤيد عيسى الذى أُلحد فى تعاليمه النصارى . ويؤيد كل رجل هجر الخرافات والأوهام ، وقرّر أن يسير إلى الله على ضوء من الإيمان الواضح والعمل الصالح .
وللفطرة^(١) فى بلاد الإسلام كتاب يُتلى ودروس تُلقى وشعوبٌ هاجعة !! .
ولها فى بلاد أخرى رجال يُنقّبون عن هداياتها كما يُنقّب المعدّنون عن الذهب فى أعماق الصحارى ، فإذا ظفروا بشيء منه أغلوا قدره واستفادوا منه .
وصدق من قال : «الناس رجلان : رجل نام فى النور ، ورجل استيقظ فى الظلام!!» .
ونتاج الفطرة الإنسانية فى البلاد المحرومة من أشعة القرآن الكريم نتاج واسع الدائرة متفاوت القيمة .

وليس يصعب على من له أثارة من علم بالإسلام الحنيف أن يرى المشابهة بين الدلالة الصامتة هناك ، والدلالة الناطقة هنا .

أو بين العنوان المفصول عن موضوعه هنا ، والموضوع الذى فقد عنوانه هناك !! .
إن الانحطاط الفكرى فى البلاد المحسوبة على الإسلام يثير اللوعة .
واليقظة العقلية فى الأقطار الأخرى تثير الدهشة .

ولا يحملنا على العزاء إلا أن هذه اليقظة صدّى الفطرة التى جاء الإسلام يعلى شأنها ، أما تخلف المسلمين فسببه الأول تنكّرهم لهذه الفطرة السليمة وتخاذلهم عن السير معها .

وفى هذا الكتاب مقارنة بين تعاليم الإسلام كما وصلت إلينا ، وبين أصدق وأنظف ما وصلت إليه حضارة الغرب فى أدب النفس والسلوك . وسيرى القارئ من روعة التقارب بل من صدق التطابق ما يبعثه على الإعجاب الشديد .

لقد قرأت كتاب « دع القلق وابدأ الحياة » للعلامة «دليل كارنيجى» الذى عربّه الأستاذ عبد المنعم الزياىدى ، فعزمت فور انتهائى منه أن أردّ الكتاب إلى أصوله الإسلامية !! .

لا لأن الكاتب الذكىّ نقل شيئاً عن ديننا ، بل لأن الخلاصات التى أثبتتها بعد استقراء جيّد لأقوال الفلاسفة والمربين وأحوال الخاصة والعامة تتفق من وجوه لا حصر لها مع الآيات الثابتة فى قرآننا والأحاديث المأثورة عن نبينا .

(١) اقرأ مقدمة كتابنا « الإسلام والمناهج الاشتراكية » .

إن المؤلف لا يعرف الإسلام ولو عرفه لنقل منه دلائل تشهد للحقائق التي قررها
أضعاف ما نقل من أى مصدر آخر .

إن الفطرة السليمة سجّلت وصاياها فى هذا الكتاب بعد تجارب واختبارات ، وما
انتهت من تسجيله جاء صورة أخرى للحكم التي جرت على لسان النبي العربى
الكريم محمد بن عبد الله منذ قرون .

وبذلك اتفق وحي التجربة ووحى السماء .

وسيرى القارئ مدى الصحة أو الوهم فى هذا القول الذى نقول .

وخطتى فى هذا الكتاب أن أعرض الإسلام نفسه فى حشدين متمايزين : الأول
من نصوصه نفسها ، والآخر من النقول التي تُظهرها فى كتابات وتجارب وشواهد
الأستاذ الأمريكى « ديل كارنيجى » .

فكأن المقارنة العلمية تجيء عرضاً ، أو فى المرتبة التالية .

وذلك ما قصدته ، وتعمّدتة .

فأنا قبل كل شىء كاتب مسلم ، أمنتُ بهذا الدين عن دراسة مجردة لأصوله ، وأعرف أن
حاجة العالم إليه غير متوقّفة على شواهد تجيئه من هنا ومن هناك ، طبيعياً كانت أو متكلّفة .
ثم إنّ جهلى باللغات الأجنبية يجعلنى مقيداً بما ينقله المترجمون لى عن اللغات
التي يتقنونها .

ومن يدري ؟ لعل فى غيرها من آثار الفطرة السليمة ما يستحق التنويه والإشادة !!
فلا مكان إذاً للمقارنة بين دين الله ، وبين جهود فرد بعينه أو مدرسة بأسرها ، إلا أن
تُساق هذه الجهود المشكورة على أنها أمثلة فحسب للقواعد التي سبق الإسلام إلى
تمهيدها ، وذكر أن وقائع الحياة ستؤكددها على حدّ قوله جلّ شأنه :

﴿ سَرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعِنَا اللَّهُ وَأَعْرِضُ ﴾ (١)

وأمرّ ثانٍ أشير إليه : إن مشاعر التعصب لجنس من الأجناس ماتت فى دمي لأنى
مسلم ، غير أن التحمّس للعروبة وأدبها غلبنى فى هذه الآونة ، إذ أحسستُ كأن
التضحية بالعرب ولغتهم بعض ما تكنّه السياسة الدولية فى ضميرها الملوّث ؟ وبعض
ما تسخرّ له أتباعها وأذنانها فى ربوع بلاد الإسلام .

ودوافع هذا اللدد لا تخفى ، ومن آثاره أن كُتبتا معروفين - ومعروفة الجهات التي يعملون لها - يريدون قطعنا عن تراثنا الفكرى والعاطفى ، بل عن الحروف التى نكتب بها لغتنا .
وقد اصطنع هؤلاء لونا من الأدب الصحفى التافه فقيراً كل الفقر من المعانى الحية .
لذلك حرصتُ فى كتابى على إحياء الحكمة العربية الأولى ، وإمتاع القراء بطرف منها فى سياق المعارف الدينية والعلمية التى يجدونها .

وإذا كان « ديل كارنيجى » يحيا بقرائه فى جو أمريكى بحت ، فمن واجبى أن أعيش مع قرائى فى جو عربى خالص ، لا أتركه إلا للمقارنات الإنسانية الأخرى ، وهى مقارنات لا صلة لها بجنس معين ...

وأمر أخير : إنَّ تبديد الغيوم الاجتماعية المحيِّمة فى كثير من أقطارنا العربية واجب لا محيص عن القيام به ، ولا أستطيع التخلُّى عنه تقيُّداً ببحث محدود ، فلا يستغربنَّ أحدٌ أن أخوض فى مشكلات شخصية وعلل خلقية ، ولا أن أستطرد بذكر حوادث وشواهد مختلفة تمسنى من قرب أو بعد .

إننى لا أكتب إشباعاً لترف علمى قدر ما أكتب إصلاحاً لأغلاط شائعة وأوضاع جائرة .

وأعرف أن من أحزاب اليمنة وأحزاب الميسرة من يكره هذه الكتابات ويتمنى الشر لصحابها ، وقد أردد وأنا ضاحك قول العقاد :

وكذا العهد بمشوب القلى عارمُ الفطنة جيَّاش الفؤاد
أبدأ يهتف بالقول فلا يُعجب الغى ولا يُرضى الرشاد

لكننى أستدرك فأقول : إنَّ ما لا يُعجب الغى يجب أن يرتضيه الراشدون .
وإذا استوحشت من صنوف الناس فإلى ربِّ الناس المفزع :

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ ^(٨٣) وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ
فِي الْآخِرِينَ ^(٨٤) وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ^(٨٥)

محمد الغزالي

جدد حياتك

كثيراً ما يحب الإنسان أن يبدأ صفحة جديدة فى حياته ، ولكنه يقرن هذه البداية المرغوبة بموعد مع الأقدار المجهولة ، كتحسُّن فى حالته ، أو تحوُّل فى مكانته .
وقد يقرنها بموسم معين ، أو مناسبة خاصة كعيد ميلاد ، أو غرّة عام مثلاً .

وهو فى هذا التسويف يشعر بأن رافداً من روافد القوة المرموقة قد يجىء مع هذا الموعد ، فينشّطه بعد خمول ويُمَنِّيه بعد إياس .
وهذا وهَم . فإنَّ تجدُّد الحياة ينبع قبل كل شىء من داخل النفس .

والرجل المقبل على الدنيا بعزيمة وبصر لا تخضعه الظروف المحيطة به مهما ساءت ، ولا تصرفه وفق هواها . إنَّه هو الذى يستفيد منها ، ويحتفظ بخصائصه أمامها ، كبذور الأزهار التى تُطمَر تحت أكوام السَّبَّخ ، ثم هى تشقُّ الطريق إلى أعلى مستقبلة ضوء الشمس برائححتها المنعشة !! ، لقد حوَّلت الحمأ المسنون والماء الكدر إلى لون بهيج وعطر فواح . . . كذلك الإنسان إذا ملك نفسه وملك وقته ، واحتفظ بحرية الحركة لقاء ما يواجهه من شئون كريهة ، إنه يقدر على فِعْل الكثير دون انتظار أمدادٍ خارجية تساعده على ما يريد .

إنه بقواه الكامنة ، وملكاته المدفونة فيه ، والفرص المحدودة ، أو التافهة المتاحة له يستطيع أن يبني حياته من جديد .

لا مكان لتريث ، إنَّ الزمن قد يفد بعون يشدُّ به أعصاب السائرين فى طريق الحق ،
أمَّا أن يَهَب المقعد طاقةً على الخطو أو الجرى فذاك مستحيل .

لا تعلق ببناء حياتك على أمنية يُلدها الغيب ، فإنَّ هذا الإرجاء لن يعود عليك بخير .

الحاضر القريب المائل بين يديك ، ونفسك هذه التى بين جنبيك ، والظروف الباسمة أو الكالحة التى تلتف حواليك ، هى وحدها الدعائم التى يتمخض عنها

مستقبلك . فلا مكان لإبطاء أو انتظار ، قال رسول الله ﷺ : « إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل » (١) .

ثم إنَّ كل تأخير لإنفاذ منهاج تجدد به حياتك ، وتصلح به أعمالك لا يعنى إلا إطالة الفترة الكابية التي تبغى الخلاص منها ، وبقاءك مهزوماً أمام نوازع الهوى والتفريط .

بل قد يكون ذلك طريقاً إلى انحدار أشدّ ، وهنا الطامة .

وفى ذلك قال رسول الله ﷺ : « النادم ينتظر من الله الرحمة . والمعجب ينتظر المقت . واعلموا عباد الله أن كل عامل سيقدم على عمله ، ولا يخرج من الدنيا حتى يرى حسن عمله وسوء عمله ، وإنما الأعمال بخواتيمها .

والليل والنهار مطيّتان فأحسنوا السير عليهما إلى الآخرة . واحذروا التسويف فإنَّ الموت يأتي بغتة . ولا يغترنَّ أحدكم بحلم الله عز وجل ، فإنَّ الجنة والنار أقرب إلى أحدكم من شراك نعله . ثم قرأ :

﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ ﴾ (٢)

ما أجمل أن يعيد الإنسان تنظيم نفسه بين الحين والحين ، وأن يرسل نظرات ناقدة فى جوانبها ليتعرف عيوبها وأفاتها ، وأن يرسم السياسات القصيرة المدى والطويلة المدى ليتخلص من هذه الهنات التي تُزرى به .

فى كل بضعة أيام أنظر إلى أدراج مكتبى لأذهب الفوضى التي حلت به من قصاصات متناثرة ، وسجلات مبعثرة ، وأوراق أدت الغرض منها .

يجب أن أرتب كلَّ شيء فى وضعه الصحيح ، وأن يستقر فى سلّة المهملات ما لا معنى للاحتفاظ به .

وفى البيت ، إنَّ عُرْفَه وصلاته تصبح مشعّثة مرتبكة عقب أعمال يوم كامل . فإذا الأيدي الدائبة تجول هنا وهناك لتنظف الأثاث المغبرّ ، وتطرد القمامة الزائدة ، وتعيد إلى كل شيء رُواءه ونظامه .

(٢) الزلزلة ، آية ٧ ، ٨ .

(١) مسلم .

ألا تستحق حياة الإنسان مثل هذا الجهد ؟ . ألا تستحق نفسك أن تتعهد شئونها بين الحين والحين لترى ما عراها من اضطراب فتزيله ، وما لحقها من إثم فتتفيه عنها مثلما تُنْفَى القمامة عن الساحات الطهور؟! .

ألا تستحق النفس بعد كل مرحلة تقطعها من الحياة أن نعيد النظر فيما أصابها من غُثم أو غُرْم ؟ وأن نُرجع إليها توازنها واعتدالها كلما رجَّتها الأزمات ، وهزَّها العراك الدائب على ظهر الأرض في تلك الدنيا المائجة ؟ ..

إنَّ الإنسان أحوج الخلائق إلى التنقيب في أرجاء نفسه وتعهُّد حياته الخاصة والعامَّة بما يصونها من العلل والتفكك .

ذلك أن الكيان العاطفي والعقلي للإنسان قلماً يبقى متماسك اللبنة مع حدَّة الاحتكاك بصنوف الشهوات وضروب المغريات . . . فإذا تُرك لعوامل الهدم تنال منه فهي آتية عليه لا محالة ، وعندئذ تنفرط المشاعر العاطفية والعقلية كما تنفرط حبات العقد إذا انقطع سلكه . . . وهذا شأن

﴿ مَنْ أَعْفَلْنَا فَلَئِنْ عَنَّا ذِكْرُنَا وَاتَّبَعَتْهُ هَوَىٰهِ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ (١) كما يقول الله عز وجل .

وكلمة « فُرُط » هذه ينبغي أن نتأمل فيها . فالعامَّة عندنا يسمون حبات العنب الساقطة من عنقودها أو حبات البلح الساقطة من عُرجونها « فرطاً » .

وانتزاع حبات الأذرة من كيزانها المتراصة تمهيداً لطحنها تُشتق تسميته من المادة نفسها .

والنفس الإنسانية إذا تقطعت أو اصرها ، ولم يربطها نظام يُنسق شئونها ويركز قواها ؛ أصبحت مشاعرها وأفكارها كهذه الحبات المنفرطة السائبة لا خير فيها ولا حركة لها .

ومن ثم نرى ضرورة العمل الدائم لتنظيم النفس وإحكام الرقابة عليها .

والله عز وجل يُهيب بالبشر - قَبِيل كل صباح - أن يُجددوا حياتهم مع كل نهار مقبل .

فبعد أن يستريح الأنام من عناء الأمس الذاهب ، وعندما يتحركون في فُرُشهم ليواجهوا مع تحرك الفلك يومهم الجديد .

(١) الكهف آية ٢٨ .

فى هذه الآونة الفاصلة تستطيع أن تسأل : كم تعثر العالم فى سيره ؟ . كم مال مع الأثرة ؟ . كم اقترف من دنية ؟ . كم أضلته حيرته فبات محتاجاً إلى المحبة والحنان ؟ .

فى هذه اللحظة يستطيع كل امرئ أن يجدد حياته ، وأن يعيد بناء نفسه على أشعة من الأمل والتوفيق واليقظة .

إن صوت الحق يهتف فى كل مكان ليهتدى الحائر ويبتعد بالون . قال رسول الله ﷺ : « إذا مضى شطر الليل ، أو ثلثاه ، ينزل الله تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا فيقول : هل من سائل فيعطى ؟ . هل من داع فيستجاب له ؟ . هل من مستغفر فيغفر له ؟ . . حتى ينفجر الفجر »^(١) . وفى رواية : « أقرب ما يكون العبد من الرب فى جوف الليل »^(٢) . فإن استطعت أن تكون بمن يذكر الله فى تلك الساعة فكن .

إنها لحظة إدبار الليل وإقبال النهار ، وعلى أطلال الماضى القريب أو البعيد يمكنك أن تنهض لتبنى مستقبلك .

ولا تؤودنك كثرة الخطايا ، فلو كانت ركاباً أسود كزبد البحر ما بالى الله عز وجل بالتعفية عليها إن أنت اتجهت إليه قصداً وانطلقت إليه ركضاً .
إن الكنود القديم لا يجوز أن يكون عائقاً أمام أوبة صادقة . .

﴿ قُلْ يٰعِبَادِىَ الَّذِينَ

أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ

جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ ﴿٥٤﴾ ﴿٣﴾

وفى حديث قدسى عن الله عز وجل : ﴿ يا ابن آدم ، إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرتُ لك على ما كان منك ولا أبالى . يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرتُ لك ولا أبالى . يا ابن آدم لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة ﴾^(٤) .

(٢) الترمذى .

(١) مسلم .

(٤) الترمذى .

(٣) الزمر : ٥٣ - ٥٤ .

وهذا الحديث وأمثاله جُرعة تُحیی الأمل فی الإرادة المخدرة ، وتُنهض العزيمة الغافية وهی خَجَلَى لتستأنف السیر إلى الله ، ولتجدد حياتها بعد ماضٍ ملئوا مستکین^(١) ! .

لا أدري لماذا لا يطير العباد إلى ربهم على أجنحة من الشوق بدل أن يُساقوا إليه بسياط من الرهبة ؟ إنَّ الجهل بالله وبدينه هو علة هذا الشعور البارد ، أو هذا الشعور النافر - بالتعبير الصحيح - مع أنَّ البشر لن يجدوا أرباباً بهم ولا أحنى عليهم من الله عز وجل . وبره وحنوه غير مشوَّين بغرض ما ، بل هما من آثار كماله الأعلى وذاته المنزهة . وقصة الإنسان تشير إلى أن الله خلقه ليكرمه لا ليهينه ، وليسوده في العالمين ، لاليؤخر منزلته أو يضع مقداره :

﴿ وَقَدْ مَكَرْتُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَاكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾

﴿ {١٠} وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾^(٢)

ووظيفة الدين بين الناس أن يضبط مسالكهم وعلائقهم على أسس من الحق والقسط حتى يحيوا في هذه الدنيا حياة لا جور فيها ولا جهل . . فالدين للإنسان - كالأغذاء لبدنه - ضرورة لوجوده ومُتعة لحواسه .

والله عز وجل - بشريعته - مع الوالد ضد عقوق الولد ، ومع المظلوم ضد سطوة الظالم ، ومع أي امرئ ضدَّ أن يصاب في عرضه أو ماله أو دمه .

فهل هذه التعاليم قسوة على البشر ونكال بهم ؟! أليست محض الرحمة والخير ؟! . وإذا كلف الله أبناء آدم بعد ذلك ببعض العبادات اليسيرة ، ليحمدوا فيها آلاءه ويذكروا له حقه ، فهل هذه العبادات المفروضة هي التي يتألم الناس من أدائها ، ويتبرمون من إيجابها ؟! . الحقُّ أنَّ الله لم يرد للناس قاطبة إلا اليسر والسماحة والكرامة ، ولكن الناس أبوا أن يستجيبوا لله وأن يسيروا وفق ما رسم لهم ، فزاعجت بهم الأهواء في كل فجٍّ ، وطفحت الأقطار بتظالمهم وتناكرهم .

ومع هذا الضلال الذي خبطوا فيه فإن منادى الإيمان يهتف بهم أن عودوا إلى بارئكم . إن فرحته بعودتكم إليه فوق كل وصف . قال رسول الله ﷺ : « لله أفرحُ بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في أرض دويَّة مُهلكة ، معه راحلته ، عليها طعامه

(١) اقرأ مبحث الخطيئة والتاب من كتابنا « عقيدة المسلم » .

(٢) الأعراف : ١٠ ، ١١ .

وشراؤه ، فوضع رأسه فنام نومة ، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته !! فطلبها ، حتى إذا اشتدَّ عليه الحرُّ والعطش ، أو ما شاء الله ، قال : أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت . . . فوضع رأسه على ساعده ليموت ، فاستيقظ فإذا راحلته عنده عليها زاده وشراؤه ، فالله أشدُّ فرحاً بتوبة المؤمن من هذا براحلته «^(١) .

ألا يبهرك هذا الترحاب الغامر . أتري سروراً يعدل هذه البهجة الخالصة ؟ .

إنَّ أنبل الناس عِرْقًا وأطهرهم نفسًا قلما يجد فؤاداً يتلهَّف على لقائه بمثل هذا الحنين . فكيف بخطأ أسرف على نفسه وأساء إلى غيره ؟ . إنَّه لو وجد استقبالاً يستر عليه ما مضى لكان بحسبه ذلك الأمان المبذول ليستريح ويشكر .

أما أن يفاجأ بهذه الفرحة ، وذلك الاستبشار ، فذاك ما يثير الدهشة .

لكنَّ الله أبرُّ بالناس وأسرُّ بأوبة العائدين إليه مما يظن القاصرون !! . وطبيعيُّ أن تكون هذه التوبة نُقْلة كاملة من حياة إلى حياة ، وفاضلاً قائماً بين عهدين متميزين ، كما يفصل الصبح بين الظلام والضياء .

فليست هذه العودة زُورَة خاطفة يرتد المرء بعدها إلى ما ألف من فوضى وإسفاف .

وليست محاولة فاشلة ينقصها صدق العزم وقوة التحمُّل وطول الجلِّد ، كلا . . كلا . إنَّ هذه العودة الظافرة التي يفرح الله بها هي انتصار الإنسان على أسباب الضعف والخمول ، وسحقه لجراثيم الوضاعة والمعصية ، وانطلاقه من قيود الهوى والجحود ، ثم استقراره في مرحلة أخرى من الإيمان والإحسان ، والنضج والاهتداء .

هذه هي العودة التي يقول الله في صاحبها :

﴿ وَإِذِ الْغَفَّارُ لِمَنْ نَابَ وَعَازَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾^(٢)

إنها حياة تجددت بعد بلى ، ونُقْلة حاسمة غيَّرت معالم النفس ، كما تتغيَّر الأرض الموات بعد مقادير هائلة من المياه والمخصِّبات .

إن تجديد الحياة لا يعنى إدخال بعض الأعمال الصالحة ، أو النيات الحسنة وسط جملة ضخمة من العادات الذميمة والأخلاق السيئة ، فهذا الخلط لا ينشئ به المرء مستقبلاً حميداً ، ولا مسلكاً مجيداً .

بل إنَّه لا يدلُّ على كمال أو قبول ، فإنَّ القلوب المتحجِّرة قد ترشح بالخير ، والأصابع الكرَّة قد تتحرك بالعتاء .

(٢) الآية : ٨٢ من سورة طه .

(١) البخارى .

والله عز وجل يصف بعض المطرودين من ساحته فيقول :
 ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ﴿٣٤﴾﴾ (١) ويقول في المكذبين بكتابه :

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمَنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾
 نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾ (٢)

فالأشرار قد تمرّ بضمائرهم فترات صحو قليل ثم تعود بعد ذلك إلى سباتها .
 ولا يُسمّى ذلك اهتداء ، إنّ الاهتداء هو الطّور الأخير للتوبة النصوح .



إنّ البعد عن الله لن يثمر إلاّ علقماً ، ومواهب الذكاء والقوة والجمال والمعرفة
 تتحوّل كلها إلى نقم ومصائب عندما تعرّى عن توفيق الله وتُحرم من برّكته .
 ولذلك يخوّف الله الناس عقبى هذا الاستيحاش منه ، والذهول عنه .

قد تكون سائراً في طريقك فتقبل عليك سيارة تنهب الأرض نهباً وتشعر كأنها
 موشكة على حطّم بدنك وإتلاف حياتك ، فلا ترى بدءاً من التماس النجاة وسرعة
 الهرب . . . إنّ الله يريد إشعار عباده تعرّضهم لمثل هذه المعاطب والحتوف إذا هم صدّفوا
 عنه ، ويوصيهم أن يلتمسوا النجاة - على عجل - عنده وحده :

﴿فَفِرُّوْا إِلَى اللَّهِ ۖ إِنَّ لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمُ
 مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٢﴾﴾ (٤)

وهى عودة تتطلب - كما رأيت - أن يجدد الإنسان نفسه ، وأن يعيد تنظيم
 حياته ، وأن يستأنف مع ربّه علاقة أفضل ، وعملاً أكمل ، وعهداً يُجرى على فمه
 هذا الدعاء : « اللهم أنت ربّي لا إله إلا أنت ، خلقتني وأنا عبدك ، وأنا على
 عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شرّ ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك
 علىّ ، وأبوء بذنبي ، فاغفر لي ، فإنّه لا يغفر الذنوب إلا أنت » (٤) .

(٢) الحاقة : ٤١ - ٤٣ .

(١) النجم : ٣٣ - ٣٤ .

(٤) البخارى .

(٣) الذاريات : ٥٠ - ٥١ .

عش في حُدود يومك

من أخطاء الإنسان أن ينوء في حاضره بأعباء مستقبله الطويل .
والمرء حين يؤمل ينطلق تفكيره في خط لا نهاية له ، وما أسرع الوسواس والأوهام
إلى اعتراض هذا التفكير المُرسَل ، ثم إلى تحويله همومًا جاثمة ، وهو اجس مقبضة .
لماذا تخامرُك الريبة ويخالجك القلق؟! عِشْ في حدود يومك فذاك أجدر بك ،
وأصلح لك .

ولقد ساق « ديل كارنيجى » عددًا من التجارب التى خاضها رجال ناجحون ،
رجال لم يتعلّقوا بالغد المرتقب ، بل انغمسوا إلى الأذقان فى حاضرمهم وحده يواجهون
مطالبه ويعالجون مشكلاته ، فأثّموا بهذا المسلك الراشد يومهم وغدهم جميعًا ، ثم
أهدوا لنا خلاصات تجاربهم فى هذه الكلمات : (ليس لنا أن نتطلع إلى هدف يلوح
لنا باهتًا من بعد ، وإنما علينا أن ننجز ما بين أيدينا من عمل واضح بيّن) .

وهى نصيحة للأديب الإنجليزي « توماس كارليل » .

ويزيد عليها دكتور « أوسلر » فيأمر طلبته فى جامعة « ييل » أن يبدأوا يومهم
بالدعاء المأثور عن السيد المسيح : « خبزنا كفافنا أعطينا اليوم » .

وذكّرهم بأن هذا الدعاء كان من أجل خبز اليوم فحسب .

إنه لم يحزن على الخبز الردى الذى حصل عليه أمس ، ولم يصحّ : يا إلهى لقد
عمّ الجفاف ، ونخشى ألاّ نجد القوت فى الخريف القادم !! .

أو ترى كيف أطعم نفسى وأولادى لو فقدت وظيفتى؟! .

إنه لم يرتبك مقدّمًا لهذه الدواهى المتوقعة ، إنه يطلب خبز اليوم وحده ، لأن خبز
اليوم وحده هو الذى يمكنك أن تأكله فى ذلك اليوم ..

والعيش فى حدود اليوم - وفق هذه الوصايا - يتّسق مع قول الرسول ﷺ : « من
أصبح آمنًا فى سربه ، مُعافى فى بدنه ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا

بحدافيرها»^(١) . إنك تملك العالم كله يوم تجمع هذه العناصر كلها فى يديك
فاحذر أن تحرقها .

إنّ الأمان والعافية وكفاية يوم واحد قوى تُتيح للعقل النير أن يفكر فى هدوء
واستقامة تفكيراً قد يغير به مجرى التاريخ كله ، بله حياة فرد واحد .

إن هذه النعم الميسرة ضمان كبير لصاحبها كى يقطع من الزمن فترة كاملة الإنتاج ،
مطرده السير ، مراحة من العوائق والمثبطات ..

والحق أن استعجال الضوائق التى لم يحن موعدها حمق كبير ، وغالباً ما يكون
ذلك تجسيدا لأوهام خلقها التشاؤم ، ولو كان المرء مصيباً فيما يتوقع فإن إفساد الحاضر
بشؤون المستقبل خطأ صرف ، والواجب أن يستفتح الإنسان يومه وكأنّ اليوم عالم
مستقل بما يحويه من زمان ومكان . كان الخليل إبراهيم عليه السلام إذا طلع عليه الصباح
يدعو : « اللهم هذا خلق جديد فافتحه على بطاعتك ، واختمه لى بمغفرتك
ورضوانك ، وارزقنى فيه حسنة تقبلها منى وزكّها وضعفها لى ، وما عملت من
سيئة فاغفره لى ، إنك غفور رحيم ودود كريم »^(٢) .

وكان يقول : « من دعا بهذا الدعاء إذا أصبح فقد أدى شكر يومه » .

وسيرة رسول الله ﷺ تلفتنا إلى صحة هذه الطريقة فى تجزئة الحياة ، واستقبال
كل جزء منها بنفس محتشدة وعزم جديد .

فهو إذا أصبح يقول : « أصبحنا وأصبح الملك لله والحمد لله ، لا شريك له ، لا
إله إلا هو وإليه النشور »^(٣) وإذا أمسى قال مثل ذلك ، وقد يدعو : « اللهم إنى
أصبحت منك فى نعمة وعافية وستر ، فأتم نعمتك على وعافيتك وسترك فى
الدنيا والآخرة »^(٤) . وإذا أمسى دعا بمثل ذلك .

وبعض الناس يستهين بما أولاه الله من سلامة وطمأنينة فى نفسه وأهله ، وقد
يزدرى هذه الآلاء العظيمة ، ويضخم آثار الحرمان من حظوظ الثروة والتمكين . وهذه

(٤) أبو داود .

(٣) الترمذى .

(٢) الإحياء .

(١) الترمذى .

الاستهانة غمط للواقع ومُتلفة للدين والدنيا . روى أن رجلاً سأل عبد الله بن عمرو ابن العاص : ألسْتُ من فقراء المهاجرين ؟ . فقال له عبد الله : ألكَ امرأة تأوى إليها؟ . قال : نعم . قال : ألكَ مسكن تسكنه ؟ . قال : نعم . قال : فأنتَ من الأغنياء .. قال : فإن لى خادماً . قال فأنتَ من الملوك^(١) ..

إنَّ الاكتفاء الذاتى ، وحسن استغلال ما فى اليد ، ونبذ الاتكال على المنى هى نواة العظمة النفسية وسر الانتصار على الظروف المُعنتة .

والذين لا يَشكون الحرمان - لأنهم أوتوا الكثير - قلماً ينتفعون بما أوتوا إذا هم فقدوا الطاقة النفسية على استغلال ما معهم والإفادة مما حولهم . هذه حقيقة يؤكدها النبى الكريم مطلع كل صباح فيقول : « ما طلعتُ شمسٌ قطُّ إلا بُعثَ بجنبتَيْها ملكان يُسمعان أهل الأرض إلا الثقلين : يا أيها الناس ، هلمُّوا إلى ربِّكم ، فإنَّ ما قلَّ وكفى خير مما كثر وألهى . ولا غربتُ شمسٌ قطُّ ، إلا وبُعثَ بجنبيها ملكان يناديان : اللهمَّ عَجِّلْ لمنفق خَلْفًا وعَجِّلْ لمُمسك تَلَفًا »^(٢) .

آخر هذا الحديث وعدُّ للكرام بالعِوض ، ووعيد للبخلاء بالمقت .

وأوله مقارنة قد تحسب تفضيلاً للقلة على الكثرة .

والحقيقة أنها تفضيل للقلة الكافية على الكثرة الملهية .

أما الكثرة التى تغنى صاحبها ثم يَبقى فيها فضل يسع الحاجات ويسدَّ الحقوق فإنَّها بمنزلة أسنى من القلة المحصورة . ولم يتعرض لها الحديث هنا ، كل ما عُنى به هذا الأثر النبوى تحريض المؤمنين على الكرم ، والجرأة فى البذل ، دون خشية من إملاق ، أو تبرُّم بكفاف . وهذا الفقه فى معالجة الحياة يورث المؤمنين شجاعة هائلة .

واسمع قول « أبى حازم » : (إنما بينى وبين الملوك يومٌ واحد !!) .

أما أمس فلا يجدون لذته .

وأنا وهم من غدٍ على وجَلٍ .

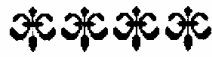
وإنما هو اليوم . فما عسى أن يكون اليوم ؟!) .

(١) مسلم .

(٢) الترغيب والترهيب .

هذا الفقير الصالح يتحدّى الملوك . إنَّ لذائد الماضي تفنى مع أمس الذهاب ، ما
يستطيع أحد إمساك بعضها .

والغد فى ضمير الغيب يستوى السادة والصعاليك ، فى ترقبه .
فلم يبقَ إلا اليوم الذى يعيش العقلاء فى حدوده وحدها .
وفى نطاق اليوم يتحوّل إلى ملك من يملك نفسه ويبصر قصده .
فما وجه الهوان ؟ ، وما مكان التفاوت ؟!



على أن العيش فى حدود اليوم لا يعنى تجاهل المستقبل ، أو ترك الإعداد له ، فإن
اهتمام المرء بغده وتفكيره فيه حِصافة وعقل .

وهناك فارق بين الاهتمام بالمستقبل والاعتماد به ، بين الاستعداد له والاستغراق فيه ،
بين التيقظ فى استغلال اليوم الحاضر وبين التوجُّس المربك المحيِّر بما قد يفد به الغد .

إن الدين فى حظره للإسراف وحبه للاقتصاد إنما يؤمّن الإنسان على مستقبله ،
بالأخذ من صحته لمرضه ، ومن شبابه لهرمه ، ومن سلّمه لخربه . كان سفيان الثورى
من كبار التابعين ، وكانت له ثروة حسنة ، وكان يشير إليها ويقول لولده : لولا هذه
لتمندل بنا هؤلاء - يقصد بنى أمية - .

يعنى أن غناه حماه من حكام زمنه ، فلم يحتجْ إلى مداهنتهم أو تملقهم .
والواقع أن ذلك مسلك يعين على بلوغه إحسان العيش فى حدود اليوم ، فإن
الحاضر المكين أساس جيد لمستقبل ناجح ، ومن ثمَّ يجب نبذ القلق .

قال الشاعر :

سهرتُ أعينٌ ونامت عيونُ فى شؤون تكون أو لا تكون
إن ربّاً كفاك بالأمس ما كان سيكفيك فى غد ما يكون

أتدرى كيف يُسرقَ عمر المرء منه ؟ يذهل عن يومه فى ارتقَاب غده ، ولا يزال
كذلك حتى ينقضى أجله ، ويده صِفْر من أى خير .

كتب « ستيفن ليكوك » يقول : (ما أعجب الحياة !!

يقول الطفل : عندما أشبُّ فأصبح غلاماً .

ويقول الغلام : عندما أترعرع فأصبح شاباً .

ويقول الشاب : عندما أتزوج . فإذا تزوج قال : عندما أصبح رجلاً متفرغاً .

فإذا جاءته الشيخوخة تطلَّع إلى المرحلة التي قطعها من عمره ، فإذا هي تلوح وكأن ريحاً باردة اكتسحتها اكتساحاً .. إننا نتعلم بعد فوات الأوان أن قيمة الحياة في أن نحياها ، نحيا كل يوم منها وكل ساعة) .

في هؤلاء الذين ضيَّعوا أعمارهم سُدىً ، وتركوا الأيام تفلت من أيديهم لُقى ، يقول الله تعالى :

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ (١)

ويقول :

﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ (٢)



(٢) الآية : ٤٦ من سورة النازعات .

(١) الآية : ٥٥ من سورة الروم .

الثبات والأناة والاحتياى

إذا دهمتك شدة تخاف منها على كيانك كله ، فما عساک تصنع ؟ .
تدع الرّوع ينهب فؤادك ، والعواصف الجائحة ترمى بك فى مكان سحيق؟! أم
تقف مطمئناً ، وتحاول أن تتلمّس بين هذه الضوائق مأمناً يهديك إليه
الفكر الصائب ؟ .

يقول « ديل كارنيجى » :

١ - سل نفسك : ما هو أسوأ ما يمكن أن يحدث لى ؟ .

٢ - ثم هبى نفسك لقبول أسوأ الاحتمالات .

٣ - ثم اشرع فى إنقاذ ما يمكن إنقاذه .

وهذه خطة يوصى العقل والدين معاً باتباعها . وفى أدب العرب ذخائر لا تحصى
من شجاعة الرجال فى استقبال المحن ، ومن حرصهم على الخروج منها مخرجاً لا
يخدش المروءة ولا الشرف .

ولا بأس أن نذكر هنا أبيات ثابت بن زهير الملقب « تأبّط شراً » :

إذا المرء لم يَحْتَلْ وقد جدَّ جدُّه أضاع وقاسى أمره وهو مُدْبِر
ولكنْ أخو الحزم الذى ليس نازلاً به الخطبُ إلا وهو للقصد مُبْصِرُ
فذاك قريعُ الدهر ما عاش حَوْلَ إذا سُدَّ منه منخر جاس منخر

«وتأبّط شراً» فى هذه النصائح يشرح ما قاله المهندس الأمريكى «ويليس كاربير» :
(إنَّ شرَّ آثار القلق تبديده القدرة على التركيز الذهنى ، فنحن عندما نقلق تتشتت
أفكارنا ، ونعجز عن حسم المشكلات واتخاذ قرار فيها ، ولو أننا قسرنا أنفسنا على
مواجهة أسوأ الاحتمالات ، وأعدناها لتحمل أىّ النتائج لاستطعنا النفاذ إلى
صميم الواقع ، ولأحسنًا الخلاص منه) .

ولا شك أن الرجل الذى يضبط أعصابه أمام الأزمات ، ويملك إدارة البصر فيما حوله هو الذى يظفر فى النهاية بجميل العاقبة .

وتأمل فى قول قَطْرِيٍّ :

أقول لها وقد طارت شعاعاً من الأبطال ويحك لن تُراعى
فإنك لو طلبت بقاء يومٍ على الأجل الذى لك لن تُطاعى

وقول الآخر :

أقول لها وقد جشأت وجاشت مكانك تُحمدى أو تستريحي

إن هذه الأبيات تصوير حسن لموقف الرجولة من النوازل العصبية .

ماذا يجديك أن تفقد رشدك إذا هددتك أو دهمتكَ أزمة ؟ .

هذا الشاعر عندما أحسّ المنايا تقترب منه أعمل فكره بقوة : أيسلم سيقانه للريح طلباً للنجاة ؟ . كلا . إنَّ الفرار لن يرجئ أجلاً حان ، إنَّه لن يجلب إلا المعرَّة ، فليبق إذن فى مكانه ، فالبقاء - إن قتل - أروح للنفس ، وإن عاش أدعى للحمد .

وعندما يبقى الفكر يقظاً على هبوب الأخطار ، وعندما يظل المرء رابط الجأش يقبِّب وجوه الرأى ابتغاء مخلص مما عراه ، فإن النجاح لن يخطئه .

ولذلك يقول رسول الله ﷺ : « إنما الصبر عند الصدمة الأولى » .

وقد يتوقع الإنسان بعض النوازل المخوفة ، ويستبد به القلق فى انتشارها ، وكأنما هى الموت أو أشد .

وربما لم يهنأ له طعام ولا ارتسم على فمه ابتسام من تفكيره المشدود إلى ما يتوقع . والناس من خوف الفقر فى فقر ، ومن خوف الذل فى ذل !! .

وهذا خطأ بالغ . فالمؤمن الراشد يفترض أن أسوأ ما يقلقه قد وقع بالفعل ، ثم ينتزع مما يتبقى له - بعد هذا الافتراض - عناصر حياة تكفى ، أو معانى عزاء تشفى ، على نحو ما قال الرسول ﷺ : « لتعزَّ المسلمون فى مصائبهم المصيبة فى ، إنهم لن يُصابوا بمثلها » .

أجل فقد كانت حياته لهم بركة ما تُعوِّض ، ثم حُمَّ القضاء وذهب ، فكل مُصاب بعده هيئن .

إن الإنسان يتخوف فقدان ما ألف ، أو وقوع ما يفدح حمله ، وكلا الأمرين - بعد حدوثة - يُستقبل دون عناء جسيم .

أعرفُ رجلاً قُطعت قدمه في جراحة أجريت له ، فذهبت إليه لأواسيه ، وكان عاقلاً عالماً ، وعزمتُ أن أقول له : (إنَّ الأمة لا تنتظر منك أن تكون عداءً ماهراً ، ولا مصارعاً غالباً ، إنما تنتظر منك الرأي السديد والفكر النير ، وقد بقى هذا عندك ولله الحمد) .

وعندما عُدته قال لي : (الحمد لله . لقد صحبتني رجلى هذه عشرات السنين صحبة حسنة ، وفي سلامة الدين ما يُرضى الفؤاد) .

وقد نقل لنا « ديل كارنيجي » هذه النصائح : (أعدوا أنفسكم لتقبل الحقيقة فإن التسليم بما حدث هو الخطوة الأولى في التغلب على المصائب . وهذه الحكمة «لوليم جيمس» فسرها الفيلسوف الصيني « لين يوتانغ » بقوله : إن طمأنينة الذهن لا تتأتى إلا مع التسليم بأسوأ الفروض ، ومرجع ذلك - من الناحية النفسية - أن التسليم يحرر النشاط من قيوده . قال : ومع ذلك فإن الألوف المؤلفة من الناس قد يحطمون حياتهم في سؤرة غضب ، لأنهم يرفضون التسليم بالواقع المر ، ويرفضون إنقاذ ما يمكن إنقاذه ، وبدلاً من أن يحاولوا بناء آمالهم من جديد يخوضون معركة مريرة مع الماضي ، وينساقون مع القلق الذي لا طائل تحته) .

والتحسر على الماضي الفاشل ، والبكاء المجهد على ما وقع فيه من آلام وهزائم هو - في نظر الإسلام - بعض مظاهر الكفر بالله والسخط على قدره .

ومنطق الإيمان يوجب نسيان هذه المصائب جملة ، واستئناف حياة أدنى إلى الرجاء وأحفل بالعمل والإقدام .

وفي هذا يقول الله عز وجل :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ

أَوْ كَانُوا غُرَبَىٰ لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ

حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١﴾

(١) الآية : ١٥٦ من سورة آل عمران .

وفى ضوء هذه الآية تُدرِكُ قول القائل :

فإن تَكُنْ الأيامُ فينا تبدلت
فما لِيَنْتَ منّا قناةً صليبةً
ولكن رَحَلْنَاها نُفوسًا كريمةً
وَقِينًا بحسن الصَّبْرِ منّا نفوسنا
إنَّ الينبوعَ الذى تسيلُ منه مخايلُ الرجولةِ الناضجةِ هو الذى تسيلُ منه معانى
اليقينِ الحى .

وإذا وجدت الصبر يساوى البلادة فى بعض الناس فلا تخلطنُ بين تبدُّدِ الطباعِ
المريضةِ وبين تسليمِ الأقوياءِ لما نزلَ بهم .
وأولُ معالمِ الحريةِ الكاملةِ ألا يضرعَ الرجلُ لحاجةِ فقدها .
وعندما يكون المرءُ عبدَ رغبةٍ تنقصه فتلك ثغرة فى رجولته ، وهى بالتالى
ثُلْمَةٌ فى إيمانه .

والإيمان الحق يجعل الرجل صُلبَ العود ، لا يميل مع كل ريح ، ولا ينحني مع
أى خَلَّةٍ . وإذا أحصينا الرجال الذين لا يأخذهم الدهشُ أمام المفاجآت عرفنا أن لهم
من أنفسهم ما يهونُ عليهم أى مفقود وما يسليهم عن كل فائت ، وبهذا الشعور
يمكنهم أن يقتحموا كل حصارٍ تضربه عليهم الليالى الكوالح .



إنَّ الرجلَ العرييدَ الهجَّامَ على لذائذ الحياة - متعسِّفًا أو متلطفًا - فى اقتناصها ربما
تصيبه النازلة من نوازل الدهر فيلقاها فى غير مبالاة ، أو يقول قول امرئ القيس :
(اليوم خمر وغداً أمر) .

وفى الحياة أناس يلوذون بالاستخفاف والسخرية من كل شىء ، فإذا صوّبت
الأحداث لهم سهمًا مسَّ جوانبهم كما تمس القذيفة الطائشة أطراف رجل مشغول
عنها بأمر نفسه .

وحالات هؤلاء لا تجعل مثلًا يُحتذى فى تحمُّلِ الشدائدِ بجَلَدٍ أو مرح .

وكل ما تدل عليه أنَّ الحساسية بالآلام تتفاوت تفاوتًا واسعًا بين الناس ، وإنَّ
الاستغراق فى حال ما - طيبةٍ أو خبيثةٍ - يخفِّفُ من حدَّةِ الشعور بالأذى .

ومن ثمَّ وجب علي طلاب الكمال وأهل المروءة أن يتحصَّنوا بمثلهم العليا ، وأن يلتمسوا السُّلوى في ظلِّها .

وأن يجدوا في ذلك عزاء لا يجده الشُّطار والفُجَّار في الرضى بمآربهم الدنيا .
ولقد قصرَّ علينا « ديل كارنيجي » قصة رجل أصابته قَرْحة في أمعائه بلغ من خطورتها أن الأطباء حدَّدوا له أوان وفاته ، وأوعزوا إليه أن يجهِّز كفنه . قال : (وفجأة اتَّخَذَ « هانى » - اسم المريض - قراراً مدهشاً . إنَّه فكر في نفسه إذا لم يبقَ لى في هذه الحياة سوى أمد قصير ، فلماذا لا أستمتع بهذا الأمد على أكمل وجه ، لَظالما تمنيت أن أطوف حول العالم قبل أن يدركنى الموت ، فها هو ذا الوقت الذى أحقق فيه أُمْنِيَّتِي . وابتاع تذكرة السفر ، فارتاع أطباؤه وقالوا له : إننا نحذرك ، إنك إن أقدمتَ على هذه الرحلة فستدفن فى قاع البحر ، لكنه أجاب : كلا ، لن يحدث شىء من هذا ، لقد وعدتُ أقاربي ألاَّ يُدفن جثمانى إلا فى مقابر الأسرة .) وركب « هانى » السفينة ، وهو يتمثل بقول الخيام :

إنعم أقصى النعيم بما ملكت يداك
قبل أن توسد اللحد فلا شىء هناك
سوى تراب من تحتك وتراب من أعلاك
فلا شراب ولا غناء ولا نهاية بعد ذاك

وبدأ الرجل رحلة مشبعة باللهو والاستخفاف ، وأرسل خطاباً لزوجته يقول فيه :
« لقد شربتُ النبيذ على ظهر السفينة . ودخنتُ السيجار ، وأكلتُ ألوان الطعام كلِّها ، حتى الدَّسم المحظور منها ، وتمتعتُ فى هذه الفترة بما لم أتمتع به فى ماضى حياتى » ثم ماذا ؟ . ثم يزعم « ديل كارنيجي » أنَّ الرجل صحَّ من علته ، وأنَّ الأسلوب الذى سار عليه أسلوب ناجع فى قهر الأمراض ومغالبة الآلام ...

لقد أيقن الرجل أنَّ ساعته حانت فلم تفرعه رهبة الموت ، وبنى مسلكه عقب تكشف مصيره له على انتهاز كل لحظة للعبِّ من المتع الميسرة . فإذا هو بما عراه من سرور مذهل يتغلَّب على القرحة المعوية ويستعيد عافيته الأولى .

ونحن لا ننكر آثار الانتعاش النفسى فى هزيمة الصعاب ، ونعترف بما لارتفاع القوى المعنوية من استهانة بالتعب ، واستطالة على العوائق ، وانتصار فى أغلب معارك الحياة .

بيد أننا نلقت النظر إلى الغلط الشنيع في فهم الموت على أنه عدم محض ، وسوق أبيات الخيام السابقة لحفز الشهوات على التهام ما يمكنها من الحياة قبل أن تنتهى هذه الحياة ولا تعود . . هذه أكذب فرية يشيعها المبطلون في أرجاء العالم .

والحق الذى كان يجب على المنتسبين للأديان كافة أن يفقهوه وأن يقفوا عنده هو أن الموت مرحلة تتلوها حياة أضخم من حياتنا هذه ، وأعمق إحساساً ، وأرحب آفاقاً . حياة تعدُّ حياتنا هذه لهواً وَعَبَثًا إلى جانبها ، ولذلك يعبر القرآن عنها بلفظ أكبر فى مبناه ليكون أوسع فى معناه فيقول :

﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (١)

إن الشعور بأن الموت بداية فناء مطلق وهم يشيع للأسف بين الكثيرين ، وهو الذى يخامر المنتحرين عندما يقررون مغادرة الحياة .

إنهم معذبون بالإحساس السارى فى أعصابهم بحملهم الغم والكرب ، فما الذى يريحهم من هذا الإحساس ؟ . الموت الذى يتوهمونه ضياعاً وانقطاعاً وفراغاً من كل شعور !! .

فكيف إذا علموا بالحقيقة المرّة ، ووجدوا أنفسهم التى يريدون إزهاقها ما تزال باقية لم يتغيّر منها إلا الإهاب الذى احتواها حيناً ، ثم عريت عنه دون أن ينقص وعيها أو يقل حسّها ؟ ! .

إن ما بعد الموت طور آخر من أطوار الوجود الإنسانى يتسم بزيادة الوعى وحدة الشعور .

قيل : إن أبا حامد الغزالى لما أحسّ دُنُوَّ أجله قال لبعض أصحابه : ائتنى بثوب جديد . فقال له : ما تريد به ؟ .

قال أبو حامد : سألقى به المَلَك !! .

فجاءوه بالثوب ، فطلع به إلى بيته ، وأبطأ على أصحابه ، فلم يعد .

فذهب إليه أصحابه يستطلعون نبأه ، فإذا هو ميت ، وإذا عند رأسه ورقة كتب فيها هذه الأبيات :

(١) العنكبوت : ٦٤ .

فَرْتَوْنِي ، وَبِكُوا لِي حَزَنًا ..
 ليس^(١) هذا الميت والله أنا ..
 كان بيتي وقميصي زمنا
 طرْتُ عنه وَيَقِي مُرْتَهِنَا
 لَأَمْتَحَانِي فَنَفَيْتِ الْمَحَنَا^(٢)
 وبنى لي في المعالي سَكْنَا
 فحَيِّيتُ ، وَخَلَعْتُ الْكَفْنَا
 وَأَرَى اللَّهَ جَهَارًا عَلْنَا^(٣)
 لستُ أرضى داركم لي ووطننا^(٤)
 كحَيَاة ، وهو غايات المنى ..
 هيَ إِلَّا نُقْلَةً مِنْ هَاهُنَا ..
 وهذه الأبيات ، سواء صَحَّتْ نِسْبَتُهَا لِلغَزَالِي أم لم تصح ، فهي صورة صحيحة

قُلْ لِإِخْوَانِ رَأُونِي مَيِّتًا
 أَتَظُنُونِي بِأَنِّي مَيِّتُكُمْ
 أَنَا فِي الصُّورِ^(٢) وَهَذَا جَسَدِي
 أَنَا عَصْفُورٌ وَهَذَا قَفْصِي
 أَنَا دُرٌّ قَدْ حَوَاهُ صَدْفٌ
 أَحْمَدُ اللَّهُ الَّذِي خَلَّصَنِي
 كُنْتُ قَبْلَ الْيَوْمِ أَنَا جِي مَلَأُ
 وَأَنَا الْيَوْمَ أَنَا جِي مَلَأُ
 قَدْ تَرَحَّلْتُ وَخَلَفْتُكُمْ مَو
 لَا تَظُنُّوا الْمَوْتَ مَوْتًا إِنَّهُ
 لَا تَرْعُكُمْ هَجْمَةُ الْمَوْتِ فَمَا
 للفكر الديني عما دار وراء الموت .

ولقد قرأت لأحد الماديين أنه رأى صرصاراً يموت - لعله من ضربة عابرة -
 فتمثل مستقبل البشرية كلها في نهايته التافهة ، إنها هكذا تنقضي ، ويحتويها
 ظلام العدم والنسيان !! .

أما أبيات الخيام التي تصوّر الميت جثة تحتها تراب وفوقها تراب ، ثم لا شيء بعد ،
 فهي ليست إلا تخليطاً في تخليط .

وأى امرئ يبني حياته على هذا الزعم فهو يبنينا على الخرافة .
 وقد يلتذ بعيشه على أوسع نطاق ، وقد يكون غرامه في ملاقات الدنيا بخيرها
 وشرها مثار نجاح وتأمل ، ولكننا لا يجوز أن نُخدع بهذه الصورة الباطلة .
 فالنهج الأقوم أن يكون مصدر طاقتنا المادية والمعنوية هو الحق وحده .

وماذا على المريض المصاب بقرحه الأمعاء لو أنه حسب الموت نُقْلَةً من بلد إلى بلد ،
 فلم ير فيه وحشة مروّعة ولا ظلاماً مهولاً .

(١) يرفض أن تكون الشخصية الإنسانية هي تلك الجنة البالية .

(٢) يعني البرزخ بين الحياتين ؛ وما كان الجسد قبلاً إلا ملبساً خُلع .

(٣) بالموت تنتهي فترة الاختبار وتبدأ سعادة السعداء .

(٤) رؤية روحية بدهاء لا كما يتبادر إلى الذهن .

(٥) الحياء إلى الدنيا ثم تركها مشيئة إلهية خالصة ، ولكن في الكلام معنى الاستبشار بما لقي ..

وماذا عليه لو تحمّل نبأ العلة التي أصابته بطمأنينة وتسليم لأنه يؤمن بالله ، ولا يحزن من لقائه وإن اقترب مواعده !؟ .

وأقرب إلى الحقيقة من أبيات الخيام الأنفة أبيات الشاعر « محمد مصطفى حمام » التي يقول فيها (١) :

علمتني الحياة أن (حياتي)	إنما كانت امتحاناً طويلاً
قد أرى بعده نعيماً مقيماً	أو أرى بعده عذاباً وبيلاً
علّ خوفى من الحساب كفيل	لى بالصفح يوم أرجو الكفيل
علّ خوفى يردنى عن أمور	خبثت غاية وساءت سبيلاً
وعد الله من ينيب ويخشى	بطشه رحمةً وصفحاً جميلاً
وبحسبى وعد من الله حق	إنه كان وعده مفعولاً

الواقع أن الجزع والجن والتحسر وشتى العواطف التي تنتاب الناس بإزاء الموت تعود إلى فهمه على أنه انتقال من وجود إلى عدم ، ومن ضياء إلى ظلام ، ومن إيناس إلى وحشة .

فهل يدري هؤلاء أن هذه الحياة الدنيا بما فيها ومن فيها ستكون ذكريات حافلة مثيرة ، وأن يوماً لا بد منه سوف يقدم ليتلاقى فيه الصالحون ، فيقول بعضهم لبعض :

﴿ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَّنَا
عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ ﴿٢٨﴾ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٩﴾ ﴾ (٢)

أما حديثهم عن الملحددين والجدّة فإليك نبأه :

﴿ فَأَقْبَل بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٥﴾
قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥٦﴾ يَقُولُ أَتَىكَ مِنَ الصُّدُوقِ ﴿٥٧﴾ أَذَا
مِثْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا ﴿٥٨﴾ تَأْتِيهِمْ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينِ ﴿٥٩﴾ وَإِنَّمَا تَأْتِيهِمْ
فِي الْيَمِينِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا هَلْ أَنْتُمْ مُّطَّلِعُونَ ﴿٦١﴾ فَاطَّلَع فَرَأَاهُ فِي سَوَاءٍ أَبْحِيمٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدْتَ لَتُرْدِينِ ﴿٦٣﴾ ﴾ (٣)



(١) من قصيدة نثبت بقيتها في موطن آخر . (٢) الطور : ٢٦ ، ٢٨ (٣) الصفات : ٥٠ ، ٥٦ .

هموم وسموم

الخبراء بحياة الغرب يشكون من مرارة الكفاح الدائر في أرجائه للحصول على المال والمكافئة به .

فالأفراد والجماعات منطلقون في سباق رهيب لإحراز أكبر حظٍّ مستطاع من حُطام الدنيا .

وقواهم البدنية والنفسية تدور كالألة الدائبة وراء هذه الغاية ، وقد احتشدت فيها جميع الخصائص الإنسانية الدنيا والعليا .

إلا أن الآلات قد يَقْطُرُ عليها من الزيت ما يربطُ حدة الاحتكاك في حركتها ، ويمنع الشرر المتولد من إحراقها . أما أعصاب الناس في عراق المادة الرهيب فكثيراً ما تفقد هذا العنصر الملطّف ، وتمضى مُستثارةً يستبدُّ بها القلقُ والضيق حتى تشتعل فتأتى على الأخضر واليابس .

وقد كتب « ديل كارنيجي » يصف مشاهد هذا السعار المادى وما خلفه في النفوس والجسوم من بلاء فقال : (عشتُ في نيويورك أكثر من سبع وثلاثين سنة ، فلم يحدث أن طرق أحد بابى ليحذرني من مرض يُدعى « القلق » ، هذا المرض الذى سبب في الأعوام السبعة والثلاثين الماضية من الخسائر أكثر مما سببه الجدرى بعشرة آلاف ضعف ، نعم لم يطرق أحد بابى ليحذرني أن شخصاً من كل عشرة أشخاص من سكان أمريكا معرض للإصابة بانهيار عصبى مرجعه في أغلب الأحوال إلى القلق!!) .

ويقرر الأطباء أن واحداً من كل عشرين أمريكياً سوف يقضى جانباً من حياته في مصحح للأمراض العقلية ، ومن الحقائق المريرة أن واحداً من كل ستة شبّان تقدّموا للالتحاق بالخدمة العسكرية في خلال الحرب العالمية الأخيرة رُدّ على أعقابهم لأنه يعانى مرضاً جسمياً أو نقصاً عقلياً . . . قال : (وألقى الدكتور « هارولدسين هابين »

الطبيب بمستشفى «مايو» رسالة فى الجمعية الأمريكية للأطباء والجراحين العاملين فى المؤسسات الصناعية قال فيه : «إنه درس حالات ١٧٦ رجلاً من رجال الأعمال أعمارهم مُتجانسة فى نحو الرابعة والأربعين ، فاتضح له أن أكثر من ثلث هؤلاء يعانون واحداً من ثلاثة أمراض تنشأ كلها عن توتر الأعصاب ، وهى : اضطراب القلب ، وقرحة المعدة ، وضغط الدم . ذلك ولما يبلغ أحدهم الخامسة والأربعين بعد» . أهذا هو ثمن النجاح ، هل يعدُّ ناجحاً ذاك الذى يشتري نجاحه بقرحة فى معدته ولغط فى قلبه ، وماذا يفيد المرض إذا كسب العالم أجمع وخسر صحته؟! لو أن أحداً ملك الدنيا كلها ما استطاع أن ينام إلا على سرير واحد ، وما وسعه أن يأكل أكثر من ثلاث وجبات فى اليوم ، فما الفرق بينه وبين الفاعل الذى يحفر الأرض؟! لعلَّ الفاعل أشد استغراقاً فى النوم ، وأوسع استمتاعاً بطعامه من رجل الأعمال ذى الجاه والسطوة .

ويقول الدكتور « و . س . الفاريز » : اتضح أن أربعة من كل خمسة مرضى ليس لعلتهم أساس عضوى البتة ، بل مرضهم ناشئ عن الخوف ، والقلق ، والبغضاء ، والأثرة المستحكمة ، وعجز الشخص عن الملاءمة بين نفسه والحياة)



على ضوء هذه الصيحات المحزونة نحب أن نذكر بعض أحاديث النبى محمد رسول الله ﷺ فى ذم هذا التكالب والترهيب من عقباه ، قال : «من جعل الهمَّ همًّا واحداً كفاه الله همَّ دنياه . ومن تشعبته الهموم لم يُبالِ الله فى أىَّ أودية الدنيا هلك» (١) .

هذا اللون من التوجيه النبوى يقصد به بث السكينة فى الأفئدة ، واستئصال جراثيم الطمع والتوجع التى تُطيلُ لُغُوبَ الإنسان وراء الدنيا وتحسُّره على ما يفوته منها ، وفى ذلك يقول : « من كانت الآخرة همَّه جعل الله غناه فى قلبه ، وجمع له شمله ، وأتته الدنيا وهى راعمة . ومن كانت الدنيا همَّه جعل الله فقره بين عينيه ، وفرَّق عليه شمله ، ولم يأتِه من الدنيا إلا ما قُدِّرَ له » (٢) . وقال : « تفرَّغوا من هموم الدنيا ما استطعتم ، فإنه من كانت الدنيا أكبر همَّه أفشى الله ضيعته ، وجعل فقره

(١) الحاكم .

(٢) الترمذى .

بين عينيه . ومن كانت الآخرة أكبر همّه جمعَ الله لهُ أموره ، وجعل غناه في قلبه . وما أَقْبَلَ عَبْدٌ بقلبه على الله عزَّ وجلَّ إلا جعلَ الله قلوبَ المؤمنين تَفدٍ إليه بالودِّ والرحمة ، وكان الله إليه بكل خيرٍ أسرعَ «(١) .

وفي موارِيث النبوةِ أحاديث كثيرة من هذا النوع الرضىِّ الهادئ ، وهى حكم بالغة إذا سيقَّت في مجالها ووضعت في مواضعها ، وهى لا تعنى إلا كَفَكْفَةَ الجهودِ المجنونة في معركة الخبز ، وضبط عواطف البشر وراء مطالب الحياة ، فلا يكون زحامهم وسباقهم ذريعة إلى غرس الأضغان ، ونسيان الفضائل ، وحرَق الصداقات ، وردَّ الإنسان المهذب الرقيق حيواناً محدود الظفر والناَب يحوّل مناكب الأرض إلى مَسْبعة متهاارشة .

ولكن بعض الزُّهاد فهم الأحاديث الأنفة فهمًا مقلوبًا ، واستخدمها لإبطال أعمال الحياة بدلاً من تهذيبها ، فأساء بذلك إلى الدين والدنيا معاً .

إن من حق الدنيا علينا أن نعمل فيها ، وأن ننال من ضروراتها ومرفقاتها ما يحفظ حياتها ويسعدّها ، وقد يكلفنا هذا العمل جهداً شاقاً يتصبَّبُ معه العرق ويطول فيه العناء ، ولكن هذا الحق المقرر ، وهذا الجهد المبذول لبلوغه لا يجوز أن يميل بنا عن الجادة ، أو يزيغنا بنا عن الرِّشاد .

فالمال إذا طلبناه فلكى ننفقه لا لكى نخترنه ، وإذا أحببناه وحصلناه فلنبذله فيما يحقق مصالحنا ويصون حياتنا .

ومن حماقة أن يتحوّل المال إلى هدف مقصود لذاته تذوب في جمعه المهج ، وتُرتخص العافية ، وتتكاثر الهموم ، وتُجتذب الأمراض !! .



قال ابن الرومى :

قَرَّبَ الحَرِصُ مَرَكَبًا لَشَقِيٍّ	إِنَّمَا الحَرِصُ مَرَكَبُ الأَشَقِيَاءِ
مَرَحِبًا بالكِفَافِ يَأْتِي هَنِئًا	وعلى المُتَعَبَاتِ ذَيْلُ العَفَاءِ
ضِلَّةً لامرئٍ يُشَمَّرُ في الجَمِّ	عَ لَعِيشٍ مَشَمَّرٍ لِلْفَنَاءِ

(١) البيهقى .

دَائِبًا يَكْنِزُ الْقَنَاطِيرَ لِلْوَا
حَبْدًا كَثْرَةَ الْقَنَاطِيرِ لَوْ كَا
يَحْسَبُ الْحِظَّ كُلَّهُ فِي يَدَيْهِ
لَيْسَ فِي أَجْلِ النِّعِيمِ لَهُ حِظٌّ
ذَلِكَ الْخَائِبُ الشَّقِيُّ وَإِنْ كَا
حَسْبُ ذِي إِرْبَةٍ وَرَأْيِ جَلِيٍّ
صِحَّةَ الدِّينِ وَالْجَوَارِحِ وَالْعَرِّ
تَلِكُ خَيْرٌ لِعَارِفِ الْخَيْرِ مِمَّا
وَلَهَا مِنْ ذَوِي الْأَصَالَةِ عُشًّا
لَيْسَ لِلْمُكْثَرِ الْمُنْغَصِ عَيْشٌ

وللإسلام تعاليم طيبة في موقف الإنسان من دنياه ، إنه يتجه ابتداء إلى القلب فيغرس فيه العفاف والترفع ، ويكره إليه الجشع والشرافة والتطلع .

إن لعشق المال ضراوة تفتك بالضمائر والأبدان ، وتورث المذلة والهوان ، وانظر ما يعقبه الحب الشديد للمال والقلق البالغ من فواته .. يقول « ديل كارنيجي » : (من الحقائق المعروفة أنه عندما تهبط قيمة الأسهم في (البورصة) ترتفع نسبة السكر في البول والدم بين المضاربين !!) .

أى علاج لهذه الحال أكرم من قول محمد رسول الله ﷺ : « إنَّ هذا المَالِ خَضِرٌ حُلُوٌّ ، مَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِاسْتِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ ، وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ » (١) .

إن المال كالفاكهة الجميلة اللون ، الشهية المذاق ، وميل الطباع إلى اقتناء هذا الخضضر الحلو معروف ، بيد أن من الناس من يظل يطعم حتى تقتله التخممة . ومنهم من يختطف ما في أيدي الآخرين إلى جانب نصيبه المعقول .

ومنهم من يدخر ويجوع . ومنهم من يشغله القلق خشية الحرمان ، ومن يشغله القلق طلب المزيد .

(١) أبو داود .

وأفضل الناس من يأخذونه بسماحة وشرف ، فإذا تحوّل عنهم لم يشيّعوه بحسرة أو يرسلوا وراءه العبرات لأن بناءهم النفسى يقوم وحده بعيداً عن معايير المكاثرة ، وردائل النّهم والتوسّع . . . قال رسول الله ﷺ : « يا أيها الناس إنّ الغنى ليس عن كثرة العَرَض ، ولكن الغنى غنى النَّفس . وإن الله عزّ وجلّ يُؤتى عبده ما كُتِبَ له من الرزق ، فأجملوا فى الطّلب ، خذوا ما حلّ ودعوا ما حرّم » (١) .

والإجمال فى الطلب - كما رأيت - لا يعنى القعود أبداً .

إنّ الطلب الجميل تكسّب الحلال فى سماحة ورفق ، واطّراح الحرام فى زهادة وأنفة ، ثم تجيء بعد ذلك بقية تعاليم الإسلام القائمة على الإيمان بالله ، والتصديق بلاقائه ، وإيثار ما عنده ، ومعرفة قدر الدنيا بالنسبة إلى الأخرى . ثم معرفة قدر الله جلّ شأنه بالنسبة إلى ما عداه .

إن هذه المعرفة تنفى الأحزان عن صاحبها ، وتذرف فى فؤاده ثقة تغمر يومه وغده بالراحة والرضا :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا أَجَبَ ﴿ (٣)

أجل . طوبى لهم ، إنهم سعداء بيقينهم وإخلاصهم واستقامتهم على النهج الذى رسمه الإسلام لهم . « طوبى لمن طاب كسبه ، وصلحت سيرته ، وكرمت علانيته ، وعزل عن الناس شره . طوبى لمن عمل بعلمه ، وأنفق الفضل من ماله ، وأمسك الفضل من قوله . . . » (٣) .

إن جماهير غفيرة من الرجال الذين تظلمهم حضارة الغرب محرومون من هذه الوداعة .

يقول « ديل كارنيجى » : (لقد أثبت الإحصاء أنّ القلق هو القاتل (رقم ١) فى أمريكا ، وفى خلال سنين الحرب العالمية الأخيرة قُتل من أبنائنا نحو ثلاث مليون مقاتل . وفى خلال هذه الفترة نفسها قضى داء القلب على مليونى نسمة .

(١) أبو يعلى . (٢) الرعد : ٢٨ ، ٢٩ . (٣) الترغيب والترهيب .

ومن هؤلاء الأخيرين مليون نسمة كان مرضهم ناشئاً عن القلق وتوتر الأعصاب .. نعم إنَّ مرض القلب من الأسباب الرئيسية التي حدثت بالذكور «ألكسيس كاريل» إلى أن يقول : إنَّ رجال الأعمال الذين لا يعرفون كيف يكافحون القلق يموتون مبكرين .

وقلما يمرض الزوج في أمريكا أو الصينيون بأمراض القلب ، فهؤلاء أقوام يأخذون الحياة مأخذاً سهلاً ليناً . وإنَّك لترى أنَّ عدد الأطباء الذين يموتون بالسكتة القلبية يزيد عشرين ضعفاً على عدد الفلاحين الذين يموتون بالعلَّة نفسها ، فإنَّ الأطباء يحيون حياة متوترة عنيفة ويدفعون الثمن غالياً) .

أجل فإنَّ القلق والهَمَّ يَحْطِمان العمالقة ، ويُذْبِلان الوجوه الطافحة بالحياة ، ولذلك يقول الشاعر :

والهَمُّ يَحْتَرِمُ الجَسِيمَ نَحَافَةً وَشَيْبَ نَاصِيَةِ الصَّبِيِّ وَبُهْرَمُ

وقد كنتُ أعجب كيف أن فلاناً امتلكه الحزن إثر كارثة عسيبة ، فإذا بعض أضراسه قد سقط من فمه ، ثم أدركت بعد كشف الطبِّ الحديث أن الأزمات النفسية العاتية شديدة الوطأة على الجسم ، وأنها تحول العصارات الهاضمة إلى سموم ، فلا تستفيد المعدة من أغنى الأطعمة بالغذاء ، وأنها تفتت جِير الأسنان ، وتزلزلها من مستقرها العتيد .

وقد قرأنا كيف أن بكاء يعقوب على ابنه أفقده بصره ، وكيف أنَّ الغمَّ بلغ مداه بالسيدة عائشة - عندما تناول عليها الأفاكون - فظلَّت تبكى حتى قالت : « ظننتُ أنَّ الحزن فالتق كبدى » .

وقد أدرك الموجَّهون خطر الأحزان على كيان الأمم وإنتاجها ، فتألَّفت في (ألمانيا) منذ سنين جماعة جعلت شعارها : **القوة في السرور** . وإنه لخير للأمم أن تستقبل الحياة ببشْر وأمل كي تستفيد من وقتها ومالها ، ومن حقِّها على قادتها أن يجنَّبوها القنوط والتشاؤم والاستكانة ، فإن هذه المشاعر الباردة تطويها في أكفان الموت قبل أن تموت :

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميتُ ميِّتُ الأحياء
إنما الميت من يعيش كئيباً كاسفاً باله قليل الرجاء

وما أظن عاقلاً يزهد في البشاشة أو مؤمناً يجنح إلى التشاؤم واليأس ، وربما غلبت المرء أعراضاً قاهرة فسلبته طمأنينته ورضاه ، وهنا يجب عليه أن يتشبَّث بالعناية العليا كي تنقذه مما حلَّ به ، فإن الاستسلام لتيار الكآبة بداية انهيار شامل في الإرادة يطبع الأعمال كلها بالعجز والشلل .

ولذلك كان رسول الله ﷺ يعلم أصحابه أن يستعينوا بالله في النجاة من هذه الآفات . قال أبو سعيد الخدرى : دخل رسول الله ﷺ المسجد ذات يوم ، فإذا هو برجل من الأنصار يقال له أبو أمامة ، فقال : «يا أبا أمامة .. ما لى أراك جالساً في المسجد في غير وقت صلاة ؟ قال : هموم لزمتمنى وديون يا رسول الله . قال : أفلا أعلمك كلاماً إذا قلته أذهب الله همك ، وقضى عنك دينك ؟ قلت : بلى يا رسول الله . قال : قل إذا أصبحت وإذا أمسيت : اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال» (١) . قال : ففعلت ذلك ، فأذهب الله همى وقضى عنى دينى .

وبديهي أن ترديد كلمات معينة ليس إلا مفتاحاً لأحوال نفسية جديدة تتغير بها حياة الرجل ، ثم تستقيم بعدها خطاه وتلاحقه عناية الله .

وقد رأيت أن النبي ﷺ استغرب قعود الرجل في المسجد ، فردّه إلى الميدان مُزوّداً بدعاء يفتتح به نهاره ، ويبتدئ به أعماله بعيداً عن أغلال الضيق النفسى والشلل الفكرى . وبذلك يأمن « غلبة الدين ، وقهر الرجال » .

وعن شدّاد بن أوس قال : كان رسول الله ﷺ يعلمنا أن نقول : « اللهم إني أسألك الثبات في الأمر ، وأسألك عزيمة الرشد ، وأسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك ، وأسألك لساناً صادقاً ، وقلباً سليماً ، وأعوذ بك من شر ما تعلم ، وأسألك من خير ما تعلم ، وأستغفرك مما تعلم ؛ إنك أنت علام الغيوب » (٢) .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : «قلما كان رسول الله يقوم من مجلس حتى يدعوا بهؤلاء الدعوات لأصحابه : «اللهم أقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك ، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ، ومن اليقين ما تهون به علينا مصيبات الدنيا . ومتّعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا ، واجعله الوارث منا . واجعل

(١) أبو داود . (٢) الترمذى .

ثَارَتَا عَلَيَّ مِنْ ظَلَمْنَا ، وَأَنْصُرْنَا عَلَيَّ مِنْ عَادَانَا ، وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا ، وَلَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا ، وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا ، وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لَا يَرْحَمُنَا» (١) .

إنَّ هذه الأدعية - كما أشرنا إلى ذلك في بعض كتبنا - أشبه بالأنشيد الحماسية التي تثير عواطف الركب السائر ، فهي ليست جُؤار القاعدين ولا أمانى الهامدين ، بل هي أمداد دافقة من الحق والضيء واليقين يتغلب بها البشر على مشكلات العيش ومضايق الأيام .

ثم هي تحديد للمعاني التي يصح التمسك بها والتقلب في جوها ، وهي معان قوامها عقد العزم على العمل في ظل الإيمان والعافية والعدالة ، وفي ظل الكبرياء على مشاغل الدنيا ومحرجاتها الجمّة .

وبهذا المنهج يطيب المرء روحًا وبدنًا ، ويكتمل دينًا ودنيا .

وبعض الناس يتصور أنّ الدعاء موقف سلبي من الحياة ؛ أليس عرضُ حاجات وانتظار إجابة؟! .

ويوم يكون الدعاء كذلك لا يعدو ترديد أمانى ، وارتقاب فرج من الغد المجهول ؛ فإن الدعاء يكون لغوًّا ، ولا وزن له عند الله ..

إنَّ الدعاء أولاً تحديد وجهة ، ورسم مثل أعلى ، فإبراهيم عندما قال :

﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِي ﴾ (٢) كان بهذا الدعاء يجعل إقامة

الصلاة منهج حياة ، ومشغلة إنسان .

أين منه أولئك الذين يضيعون بالصلاة ، ولا يأتونها إلا وهم كُسالى ؟ .

وعباد الرحمن عندما قالوا : ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا ذُرِّيَّتًا قَوِيَّةً وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ (٣)

كانوا بهذا النداء ينشدون في المجتمع البشرى الأسرة المستقرة ، والبيت السعيد ، كما كانوا ينشدون لأنفسهم السَّبْق في مجال التقوى ، والتقدم في كل خير .

وبديهى أن ينضم إلى ذلك ما يحقق المثل المرسوم من عمل يُقَرَّب ، وخطوات موصلة .

(١) الترمذى . (٢) إبراهيم : ٤٠ .

(٣) الفرقان : ٧٤ .

على أن من أهل الدين من ظلم حقيقة الإيمان بالله واليوم الآخر ، فظن أن هذا الإيمان يعترض الحياة الصحيحة ، كما يعترض ظل الأرض ضوء القمر ليلة الخسوف .

إن وظيفة هذا الإيمان لديهم أن يجيء إلى الحياة البهجة فيرمى جوانبها بالقتام والوَحْشَة ، فما تصفو الدنيا لمؤمن ، أو بتعبير أدق : إن مقتضى الإيمان اجتذاب البأساء والضراء والكبد والتكد إلى حياة الأفراد والجماعات .

وهذا خطأ كبير وظلم للدين جسيم ، فإن نبي الإسلام - وهو أزكى من عبد الله - لم يفهم الحياة هذا الفهم ، ولم يحمل الإسلام هذا العبء . . كيف وهو القائل :

«اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري ، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي ، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي ، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير ، واجعل الموت راحة لي من كل شر»^(١) .

ولماذا يُحسب الألم والهوان والقلق من لوازم اليقين ، أو تُحسب وسائل مرضاة الله ، مع أن رسول الإسلام كان يكرهها كلها ويستجير بالله منها . فعن أبي هريرة رضي الله عنه : كان رسول الله يتعوذ من جهد البلاء ، ودرك الشقاء ، وسوء القضاء ، وشماتة الأعداء !! .

إن من الصحابة - رضوان الله عليهم - من وقع في هذا الغلط ، وحسب أن التعرض للعمد للضر كفارة للخطايا ، فأفهمهم النبي السَّميح أن الأمر أيسر من ذلك . روى أن رسول الله ﷺ عاد رجلاً من المسلمين قد خفت فصار مثل الفرخ - هزلاً - فقال له رسول الله ﷺ : «هل كنت تدعو الله بشيء أو تسأله إياه؟» . قال : نعم . كنت أقول : «اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة فعجله لي في الدنيا» ، فقال رسول الله : « سبحان الله !! لا تطيقه ، أفلا قلت : اللهم أتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار»^(٢) . قال : فدعا الله له فشفاه .

وسمع النبي رجلاً يقول : (اللهم إني أسألك الصبر) . فقال : « سألت الله البلاء فسأله العافية»^(٣) .

وقال مطرف بن عبد الله : (لأن أعافى فأشكر أحب إلي من أن أبتلى فأصبر ، لأن مقام العوافى أقرب إلى السلامة ، فلذلك أختار الشكر على الصبر لأن الصبر حال أهل البلاء) .

قال الدكتور زكي مبارك : (وصاحب هذا الكلام يرى العافية من أبواب السلامة ، أي سلامة النفوس ، لأن البلاء قد يعرض النفس للجزع والارتباب ،

(١) الترمذی .

(٢) مسلم .

(٣) الترمذی .

وتعريض النفس للفتنة غير مأمون العواقب . أما العافية فتحفظ توازن النفس ،
وتجعل الرجل قادراً على صالح الأعمال .

والحقُّ أنَّ الإنسان يكابر حين يرحَّب بالمصائب ، لأنه أسيرٌ لنظام الأعصاب في
أغلب الأحيان . ومن الخير له أن يسأل الله العافية وأن يتجنَّب التعرُّض للامتحان ،
فقد يضعف عن مواجهة ما يشتهى من المصاعب ، ويعرف بعد الانزلاق في هوة
المكارة أن العزيمة قد تفتت أو تخون ..

وعند التأمل ترى النِّعمَ والعوافى تزيد في الصلة الروحية بين الإنسان وبين
ربِّه ، والفرق بعيدُ بين الحالين : حال الطمأنينة ، وحال الاحتساب ، فالمطمئن
ينظر إلى ربِّه نظرة المدين ، وهي نظرة كلُّها ترفُّق وتخشع . أما الصابر المحتسب
فيتعرِّض للزهو بالصبر على ما يُعاني . والزهو من أشدِّ آفات النفوس) .

وهذا كلام حسن جيد ..

ونحن نحبُّ أن نكون عبيد إحصان لا عبيد امتحان .

ولكن هل تجيء الأيام بما نحب ؟ . ما أكثر العواصف التي تهبُّ علينا ، وتملأ آفاقنا
بالغيوم المرعدة ، وكم يُواجه المرء بما يكره ، ويُحرم ما يشتهى !! .

هنا يجيء دور الصبر الذي يطارد الجزع ، والرضا الذي ينفى السخَط .

وفى هذا المقام يقول الدكتور زكى : (التسليم لله من أدب النفس ، وهو يطرد
نوازع شتى يخلقها التفكير فى النصيب الحاضر من حظوظ الحياة) .

ومن الواضح أنَّ هذا المقام يحتاج إلى رياضة شديدة ، لأن الرضا لا يكون إلا بعد
تطهير القلب من الوسواس النفسية ، وهو بالتأكيد من أسباب الاطمئنان ، والطمأنينة
أكبر الغنائم فى الحياة الخلقية .

وقد يقال إن الرضا المطلق يبعث على البلادة ، ويغرى النفس بإيثار الركود . ونجيب
بأنه لا تنافى بين الرضا بالواقع والرغبة فى تكميل النفس ، وإمدادها بما تحتاج إليه من
الأغذية الدنيوية والعقلية والروحية ..

فإذا قال رسول الله ﷺ : « ارضَ بما قسم الله لك تكن أغنى الناس » (١) فلا
تجعل الرضا ذريعة القصور والقيود .

بل ارضَ بيومك . وأمل ما يسرُّك فى غدك ..

(١) مسند أحمد .

إن المجد والنجاح والإنتاج تظل أحلاماً
لذيذة في نفوس أصحابها ، وما تتحول حقائق
حيّة إلا إذا نفخ فيها العاملون من روحهم ،
ووصلوها بما في الدنيا من حسٍّ وحركة .

محمد الغزالي

كيف نُزِيلُ أسبابَ القَلَقِ ؟

لا أعرف مظلوماً تواطأ الناس على هضمه ، وزهدوا في إنصافه كالحقيقة !!
ما أقل عارفيها ، وما أقل - في أولئك العارفين - من يقدرها ويُغالي بها
ويعيش لها !!
إنَّ الأوهام والظنون هي التي ترح في جنبات الأرض ، وتغدو وتروح بين الألف
المؤلفة من الناس .

ولو ذهبتَ تبحث عن الحق في أغلب ما ترى وتسمع لأعيانك طلابه .
هناك ألاف الصحف والإذاعات تموج بها الدنيا صباحاً ومساءً ، لو غلغلت النظر
فيما ينطقها ما وجدت إلا حقاً قليلاً يكتنفه باطل كثيف ، حقاً يبرق في خفوت كأنه
نجمة توشك أن تنطفئ في أعماء الليل .

في مجال العقيدة كم من دين قام على إشاعة كاذبة أو خرافة سمجة .
وفي ميدان السياسة كم من هوى جعله الجور عدلاً ، وقوة أحالت الخير شراً .
لهذا قال الله لنبيه ولكل معتصم بالصدق في مجتمع طافح بالزيف :

﴿ وَإِنْ تَطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾^(١)

وقال :

﴿ فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا
بِعَايَتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾^(٢)

(١) الأنعام : ١١٦ .

(٢) الأنعام : ١٥٠ .

وقال :

﴿ وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ (١)

وجدير بالإنسان فى عالم استوحش فيه الحق على هذا النحو أن يجتهد فى تحرّيه ، وأن يلتزم الأخذ به ، وأن يرجع إليه كلما بعّده التيارات عنه .

ولعل هذا هو السر فى أن الله طلب إلى كل مؤمن أن يسأله الهدى ، وكلّفه ألاّ يسأم من تكرار هذا السؤال حيناً بعد حين .

فى كل صلاة مفروضة أو نافلة يقف المرء بين يدي ربه يقول :

﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ
الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾ ﴾ (٢)

ما هو هذا الصراط المستقيم ؟ إنه ليس سكةً مطروقة فى إحدى البلاد ، ولا جسراً مضروباً هنا أو هناك . إنّه المنهج الذى يشقّه المرء لنفسه بين مشكلات الحياة ، والخطّ الذى يلتمس فيه الصواب بين وجوه الرأى .

وكلما استمسك المرء بعُرَى الاستقامة واستكشف الحق فيما يعرض له من مسائل اليوم والغد فإنّه يكون أدنى إلى التوفيق ؛ إذ الخطّ المستقيم أقرب مسافة بين نقطتين ، وصاحبه أبعد عن التخبّط فى شتى المنحنيات والمنعرجات .

على أن الاهتداء إلى الحق والثبات على صراطه يحتاج إلى جهد ودأب ، ويحتاج كذلك إلى استلھام طويل من عناية الله . . وقد كان رسول الله إذا حزبه أمرٌ جنح إلى الصلاة يضمُّ إلى عَزِيمَتِهِ وَجَلَدِهِ حَوْلَ اللَّهِ وَطَوْلَهُ .



وقد يخبط المرء فى الدنيا خبّط عشواء ، وقد يصحبه « خداع النظر » فى تقديره للحقائق المحيطة به .

(٢) الفاتحة : ٦ ، ٧ .

(١) يونس : ٣٦ .

ومعنى التصور الغلط للأشياء أن ينتقل المرء من ضلال إلى ضلال ، وألاً يحسن السلوك بإزاء أى واجب يناط به أو أزمة يقف أمامها .

والله عز وجل نهى الإنسان عن الشرود وراء الأوهام والتخمينات فقال :

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ (١)

فليستخدم الإنسان فكره وحواسه فى تعرف ما حوله ، وليقرر خطة سيره بعيداً عن الظنون والتخريصات .

قال «دليل كارنيجى» : (بقى أن نتعلم الخطوات الثلاث التى يجب اتخاذها لتحليل مشكلة ما والقضاء عليها ، وهذه الخطوات هى :

١ - استخلص الحقائق . ٢ - حلل هذه الحقائق .

٣ - اتخذ قراراً حاسماً ثم اعمل بمقتضى هذا القرار) .

وقال : (إنه لا مناص من اتخاذ هذه الخطوات إذا كان علينا أن نحل المشكلات التى تُعيينا ، والتى تحيل أيامنا وليالينا جحيماً لا يطاق) .

أجل لا مناص من ذلك . والخطوة الأولى تفرض علينا التأمل الهادئ فيما حولنا لتجميع الحقائق الواضحة ، وإرساء سلوكنا على قواعدها .

ولم هذه الحقائق واجب ، وإن كان صعباً على الإنسان .

ولكن لماذا يكون ذلك صعباً على الإنسان ؟ ، لأن حبّ الشئ يُعمى ويصم ، وكذلك كرهه ، ومن ثم قيل :

وَعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ وَلَكِنْ عَيْنَ المَقْتِ تُبْذِرُ المَسَاوِيَا

ومثل المحبة والكرهية أغلب الانفعالات النفسية التى تسيطر على تفكير المرء ، وتجعله يلون الحياة بإحساسه الخاص ، فلا يستطيع أن يراها كما هى .

وقد يضل المرء عن الحقيقة لانطوائه مع عرف سائد ، أو لاسترساله مع نظرة سابقة لا أساس لها .

(١) الإسراء : ٣٦ .

وإذا خُدع المرء أبداً عن الحقيقة ؛ فكيف يُوفَّق إلى حلِّ صحيح لمشكلات الحياة
التي تلاقيه؟! .

واندراج الناس في مطاوى الغفلة وهم لا يشعرون هو حكمة ختم آيات كثيرة جداً
في القرآن الكريم بهذا التذييل : ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١)

﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٢) ، ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٣)

وكأنَّ « ديل كارنيجى » يشرح هذه الآيات إذ يقول : (إننا قلَّما نُعنى بالحقائق ،
وإذا حدث أن حاول أحدنا استخلاص الحقائق فإنه يتصيَّد منها ما يُعصِّدُ الفكرة
الراسخة في ذهنه ولا يبالي بما ينقضها ، أى أنه يسعى إلى الحقائق التي تُسوِّغُ
عمله ، وتتسقُ مع أمانيه ، وتتفقُ مع الحلول السطحية التي يرتجلها .

قال « أندريه موروا » : كل ما يتفق مع ميولنا ورغباتنا الخاصة يَبْدو معقولاً في
أعيننا . أمَّا ما يُناقضُ رغباتنا فإنه يُشعلنا غضباً . فهل من المستغرب والحالة هذه
أن يصعُبَ علينا الوصول إلى حل مشكلاتنا ، أو لسنا نسخر من الذى يحلُّ مسألة
حسابية بسيطة مفترضاً أن اثنين زائد اثنين يساوى خمسة؟! ومع ذلك فإن كثيراً
من الناس يجعلون حياتهم سعيراً بإصرارهم على أن مجموع اثنين واثنين هو
خمسة ، وربما خمسمائة؟! .

فما العلاج؟ . العلاج أن نفصل بين عاطفتنا وتفكيرنا ، وأن نستخلص الحقائق
المجرّدة بطريقة مُحايدة) .



والخطوة التالية لجمع الحقائق استشعارُ السكينة التامة في تلقّيها ، وضبط النفس أمام
ما يظهر محيراً أو مروّعاً منها ، فإن الفرق من الأحداث ينتهى حتماً بالغرق في لجّتها .
وحياة عدد كبير من القادة والأبطال تحفل بالمآزق التي لم يُنَجَّ منها إلا تقييد الرّهبة
وإطلاق العقل .

(٣) البقرة : آية ٢٤٢ .

(٢) يونس : ٣ .

(١) البقرة : آية ٣١٩ .

عندما أوشك القتال أن ينشب في حَرَم مكة بين المسلمين والمشركين ، والتفت عوامل الاستفزاز بالنبي وصحبه وهم بالحديبية يريدون العمرة ؛ كظم النبي على ما أحسَّ به من حَزَن ، وأمر أصحابه أن يطرحوا الريبة والهَمَّ ، وأن يقبلوا معاهدة تصون الدماء وتنتشر الأمان على ما بها من قيودٍ تُعنتهم .
وفي ذلك نزل قول الله :

﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ (١) .

وكلمة السكينة هذه تكررت في مواضع كثيرة ، وهي حيثما وُجدت تشير إلى ما يبثه الإيمان في النفوس من طمأنينة مرجعها الأُنس بالله ، والركون إلى قضائه ، والاستظهار بعونه كلما راب أمرٌ أو أظلم أفق .

قد يجد المرء نفسه أمام سلسلة من الفروض المقترحة للخروج من أزمة طارئة ، وقد يُقلِّب النظر فيها فيجد أن أحلاها مرّ ، وقد يكون كالمستجير من الرمضاء بالنار ، وقد يدور حول نفسه لا يرى مخلصًا ، أو يرى المخلص فادح التضحية .

ومثل هذه الأفكار القائمة تتكاثر وتتراكم مع ضعف الثقة بالله وبالنفس .

أما المؤمن فهو يختار أقرب الفروض إلى السكينة والرشد ، ثم يقدم وهو لا يبالي ما يحدث بعد ذلك ، وعلى لسانه هذه الآية :

﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (٢)

وما أكثر أن تتبخر خواطر السوء ووساوس الضعف ، ويتكشف أن الإنسان يُبتلى بالأوهام أكثر مما يُبتلى بالحقائق ، وينهزم من داخل نفسه قبل أن تهزمه وقائع الحياة :

﴿ الَّذِينَ قَالُوا لَكُمْ إِنَّا نَحْنُ الْمُغْلِبُونَ فَاحْشَوْهُمْ فَرَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ (٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسَّهُمْ سُوٌّ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ (٣)

(١) الفتح : ٣٦ . (٢) التوبة ٥١ . (٣) آل عمران ١٧٣ ، ١٧٤ .

والى هذا يشير المتنبي بقوله :

وما الخوفُ إلا ما تخوفه الفتى وما الأمنُ إلا ما رآه الفتى أمنا



فإذا عرف الإنسان الحقائق المتصلة به ، وسَبَر غَوْرَهَا جميعاً دون دهشة أو رَوْع ، بقيت أمامه الخطوة الأخيرة ؛ وهى أن يتصرَّف بحزم وقوة ، وأن ينفذ القرار الذى انتهى إليه بعزم صادق .

أعرفُ كثيراً من الناس لا يعُوزهم الرأى الصائب ، فلهم من الفِطْنة ما يكشف أمامهم خوافى الأمور .

بيد أنهم لا يستفيدون شيئاً من هذه الفِطْنة لأنهم محرومون من قوة الإقدام ، فيبقون فى مكانهم محسورين بين مشاعر الحيرة والارتباك .

وقد كره العقلاء هذه الضرب من الخَوْر والإحجام :

إذا كنتَ ذا رأى فكُنْ ذا عزيمةٍ فإنَّ فسادَ الرأى أن تتردداً

أجل . . فإن للبحث والتبصُّر أجلاً يتَّضح بعده كل شىء ، ولا يبقى مكان إلا للعمل السريع وفق ما هدَّتْ إليه الرويَّة واستبانه الصواب ، وقد قال الله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (١)

إنَّ مرحلة المشورة فى أمر ما لا يجوز أن تستمر أبداً ، بل هى حلقة تسلَّم إلى ما بعدها من عمل واجب .

فإذا تقرر العمل ، فلنمضِ فى إتمامه قُدماً ، ولنقهر علل القعود والخوف ، ولنستعن بالله حتى نفرغ منه .

قال « ديل كارنيجى » : (سألت « وايت فلبس » - أحد رجال الأعمال البارزين- : كيف كنتَ تنفذ قراراتك ؟ فأجاب : لقد وجدتُ أنَّ التفكير المستمر فى مشكلة ما إلى أبعد من مدى معيَّن يخلق القلق ، ويولِّد الاضطراب ، فإنه يأتى وقت

(١) آل عمران : ١٥٩ .

نصبح فيه المداومة على التفكير ضرراً يجب اجتنابه ، فمتى اتخذت قراراً عمدت إلى تنفيذه دون أن أتطلع البتة إلى الوراء .

وقال « وليم جيمس » : عندما تصل إلى قرار وتشعر في تنفيذه ضع نصب عينيك الحصول على نتيجة ، ولا تهتم لغير هذا . يقصد أنك لا تتردد ولا تحجم ولا تخلق لنفسك الشكوك والأوهام . ولا تعاود النظر إلى الوراء ، بل أقدم على إنفاذ قرارك غير هيَّاب ولا وَّجِل) .

والحق أن الرجولات الضخمة لا تُعرف إلا في ميدان الجرأة .

وأنَّ المجد والنجاح والإنتاج تظل أحلاماً لذيذة في نفوس أصحابها ، وما تتحوَّل حقائق حيَّة إلا إذا نفخ فيها العاملون من روحهم ، ووصلوها بما في الدنيا من حسٍّ وحركة .

وكما أنَّ التردُّد خَدَش في الرجولة فهو تُهْمَةٌ للإيمان ، وقد كره النبي ﷺ أن يرجع عن القتال بعدما ارتأت كثرة الصحابة المصير إليه .

فقد كان من رأيه عندما بلغ المشركون جبل « أحد » أن يدعهم يدخلون المدينة ثم يقاتلهم في دروبها ، ورأى جمهور الشباب أن يخرجوا إليهم فيقاتلوهم دون الجبل ، واستطاعوا بكثرتهم وحماستهم أن يوجِّهوا النفوس إلى هذا القرار ، فنزل النبي عنده ، واتخذ الأُهبه لمناجزة العدو خارج المدينة .

وأحسَّ أولئك كأنهم استكروها النبي على غير ما يرى ، فاقترحوا مرة أخرى أن يدور القتال في المدينة نفسها ، ولكن النبي رفض هذا التراجع ، وأبى أن تصطبغ شئونه بطابع التردُّد ، أو التَّارُجِح بين إرادات شتى ، فقال كلمة حاسمة : « ما كان لنبي أن يلبسَ لأُمَّته ثم يرجع حتى يحكم الله بينه وبين عدوّه » .



فلندرس مواقفنا في الحياة بذكاء ، ولنرسم منهاجنا للمستقبل على بصيرة ، ثم لنرم بصدورنا إلى الأمام ، لا تثنينا عقبه ، ولا يلوينا توجُّس .
ولنثق بأن الله يحب منا هذا المضاء ، لأنه يكره الجبناء ، ويكفل المتوكِّلين .



علم أثمره العمل

فى دراساتنا القديمة تلقينا - فى تعريف العلم - أنه : إدراك ، وقواعد ، ومملكة .
يعنون بالإدراك : التصور المجرد للأشياء .

وبالقواعد : جملة المبادئ والقوانين والمصطلحات التى وضعها أهل
الفنون المختلفة .

وبالمملكة : الخبرة المكتسبة من رسوخ المرء فيما حصل عليه من معارف ، وفيما
وعاه من مناهج علم خاص أو علوم شتى .
والمملكة إنما تتكون من وفرة الإدراك واستحضار القواعد ، فهى ثمرة ما قبلها بعد
ما يبلغ تمامه .

وأصحاب الملكات المتألقة فى شُعب الثقافة الواسعة هم العلماء الأصلاء ، وعليهم
الموّل فى صحة الفهم والحكم والتعليم والأداء .

ولنترك مجال العلم النظرى إلى مجال الخلق والسلوك والإيمان والعمل . لنقول إن
الدين قد يكون منهاجاً كاملاً للرقى والتهديب ، ولكن الإفادة منه لا تصلح بإدارة
معلوماته بين الألسنة والأسماع ، ولا باستيعاب أحكامه فى الذاكرة الجيدة ، ولا
بالأداء الصورى لعباداته المقررة .

فهذا التناول للدين قليل النفع ، بل عديم الجدوى ، وفى الأثر : العلم
علمان : علم فى القلب ، فذلك العلم النافع ، وعلم على اللسان ، فذلك حجة
الله على ابن آدم .

وقال « برنارد شو » : (إذا لقنت إنساناً شيئاً فإنه لن يتعلم أبداً) .

يقصد أن التلقين لا يخلق من المتعلم شيئاً طائلاً .

ويعلل « ديل كارنيجى » هذا الحكم فيقول : (إنَّ التعلُّم عمل إيجابى لا سلبى ،
ونحن نتعلم حين نعمل ، فإذا أردت أن تستفيد من النصائح المبدولة فى تضاعيف هذا
الكتاب - أو أى كتاب - فجربها ، واعمل بها ، وطبقها فى كل فرصة تسنح لك .

فإنك - إن لم تفعل هذا - فسوف تنسى ما لُقنته سريعاً .
 إن المعرفة التي نستخدمها هي وحدها التي تعلق بأذهاننا) .
 وهذا صحيح ؛ وقد جاء عن أحد التابعين : (كنا نستعين على حفظ أحاديث
 رسول الله ﷺ بالعمل بها) .
 إن العمل يُحيى القلوب بالمعرفة اليقظة الدافعة .
 والعلم الذى ينشأ عن العمل هو الملكة التى يستنير بها المرء ، ويعرف منها مواقع
 أقدامه فى دروب الحياة المتشابهة .

وفى هذا يقول الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَعَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفَايَاتٍ
 مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١)

ومقتضى الإيمان بالرسول بعد تقوى الله هو اقتفاء أثره واتباع سننه ، لأنه الترجمان
 العملى الحى لما فى الكتاب الكريم من توجيه وموعظة .
 والمؤمن المواظب على اتقاء الدنيا وفعل الواجبات يكتسب من هذا الإدمان حدة
 فى بصيرته ، وحاسة دقيقة يميز بها الخبيث من الطيب .
 وقلما تختلط الأمور على فطنته ، ولو لم يرد فيها نص حاسم :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ (٢)
 ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ (٣)



إن المعلومات النظرية التى لم ينقلها العمل من دائرة الذهن إلى واقع الحياة تشبه
 الطعام الذى لم يحوله الهضم الكامل إلى حركة وحرارة وشعور .
 وهذه المعلومات تبدأ مبتسرة مهوشة مهما أجيد تصويرها .

(٢) الأنفال : ٢٩ .

(١) الحديد : ٢٨ .

(٣) الأحزاب : ٧٠ - ٧١ .

ولذلك ترى الجنود وطلاب المعاهد العسكرية يتلقون الحصص المقررة ، ثم يمرّون بعدها فى مرحلة المناورات التى تمثّل جانباً من الحياة العامة .

ومع ذلك فخبيرة هؤلاء ، ولصوق الفن الحربى فى أنفسهم دون مستواه عند من خاضوا المعارك وذاقوا أهوال القتال .

وكذلك تعلم الصلاة ، إنّ الأمر يبدأ دروساً تفرع الأذان ، ثم يحاول التلميذ أن يقيم الصلوات المكتوبة كما تعلمها ، أمّا أن يتعلم هو من صلواته الخشوع والإخلاص والتسامى فذاك يجىء بعد إقبال المصلّى على ربه ، وإتقانه الطويل لشكل الصلاة ولموضوعها جميعاً . إنّ العلم الناشئ عن العمل هو خلاصة المران والتجربة .

فى مجال التربية والإصلاح لا بدّ أن تتطوّر المعلومات إلى اكتمال نفسى واجتماعى ، ولا يُقبل من أحد أن يقف عند حدود القول مهما كان بليغاً ، ولا عند حدود الشرح مهما كان مستفيضاً .

إذا أمرت بالخير فافعله أولاً ، وإذا نهيت عن شر فاسبق إلى البعد عنه ، ثم اجتهد أن يتحوّل أمرك ونهيك إلى حقائق حيّة فى المجتمع ، بحيث يكون تغيير المنكر وإقرار المعروف غايات بيّنة يراد إيقاعها بكل وسيلة ، وبأقصر وقت .

إنّ تعشق الكمال قد ينتهى إلى حسن الحديث عنه ، وقد يكتفى عُشاقه بسرد تفاصيل دقيقة عن مسائله وقضاياها .

ثم يطوى الأمر كله دون نتيجة فعالة .

كما تموت الأمانى الحلوة فى نفوس الكسالى .

وقد كره الله عزّ وجلّ هذا اللون من السلوك الناقص لأنه أقرب إلى الادّعاء ، ولأن أصحابه يقصّرون وهم أبصر من غيرهم بمواطن الرشد :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا نَفَعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا نَفَعَلُونَ ﴿١﴾ ﴾

إنّ الوقوف بالإصلاح المنشود عند حدّ الكلام المرسل والمقترحات المبتوتة يفتح أبواباً مخوّفة للجدل الطويل ، وللثرثرة القاتلة للوقت والجهد .

ولو أن كل امرئ عنده حب للخير ارتقى بعاطفته تلك إلى مرحلة تنقل الخير من دائرة التصورات النظرية إلى « عمل » يبصر الضوء والحياة لاختصرنا - كما يقول « ديل كارنيجي » - نصف متاعبنا ، وحللنا أعقد مشكلاتنا .. ولتسمع له يروى هذه القصة عن « ليون شميكن » من رجال الأعمال قال : (وضعت قاعدة تحتم على كل واحد من مساعديّ يريد أن يعرض على مشكلة ما أن يقدم لى أولاً مذكرة تشمل الإجابة عن هذه الأسئلة الأربعة :

١ - ما هي المشكلة ؟ . وقد تعودنا فيما مضى أن ننفق ساعة أو ساعتين فى مناقشة حامية دون أن ندرى ما هي المشكلة على وجه التحديد ، كما اعتدنا أن نحيط المشكلة باللبس والغموض ، دون أن يفكر أحدنا فى تدوين موضوع المشكلة بوضوح .

٢ - ماهو منشأ المشكلة ؟ . وإذا أرجعُ بذكرتى إلى الوراء يروعننى ما أنفقناه من ساعات دون أن نحاول الوقوف على الأسباب التى دفعت المشكلة إلى حينّ الظهور .

٣ - ما هي الحلول الممكنة لهذه المشكلة ؟ .. وفيما مضى كان كلُّ منّا يقترح حلاً فيجادله زميل له ، وكثيراً ما كانت تهتاج الخواطر فتناهى بنا عن الحلّ المقترح ، وفى نهاية الاجتماع لم يكن يخطر لأحد منّا أن يدوّن الحلول التى عرضنا لها أثناء المناقشة .

٤ - ما هو أفضل الحلول ؟ . وقد اعتدت من قبلُ أن أدخل قاعة الاجتماع مع مساعديّ الذين أمضهم القلق ساعات طويلاً ، وأجأهم إلى الدوران حول المشكلة فى حلقات مفرغة دون أن يستخلصوا حلاً محدوداً .

وكان من نتيجة هذه الخطة أن قلّ التجاء مساعديّ إلىّ لعرض مشكلاتهم علىّ .. لماذا ؟ لأنهم لكى يجيبوا عن هذه الأسئلة الأربعة يجب أن يحصلوا على كافة الحقائق المحيطة بالمشكلة ، فإذا توفرت لهم هذه الحقائق فغالباً ما يُحلُّ ثلاثة أرباع المشكلة من تلقاء ذاته ، ولم يعد حلُّ الباقي يحتاج إلى معاونتى ؛ وحتى إذا أوجبت الظروف مشاورتى ، فإن المناقشة لا تستغرق أكثر من ثلث الوقت الذى كانت تستغرقه قبلاً ، لأنها - أى المناقشة - تسير فى طريق مرسوم .

ونحن الآن بفضل هذه الخطة نستهلك وقتاً ضئيلاً فى القلق ومناقشة الأخطاء ، ووقتاً طويلاً « فى العمل » على تلافى هذه الأخطاء) .

وثمّ أمر آخر نحب أن نشير إليه : إن الكلام مع رؤساء الأعمال وأصحاب الدعوات ، وولاة المناصب الكبرى قد يكثر ويتسع من غير مسوغ واضح ؛ اللهم إلا أن الأتباع والأعوان يطيب لهم أن « يتكلموا » مع رئيسهم الكبير .

وقد يكون كلامهم هذا متصلاً بموضوع الرسالة التي يهتمون جميعاً بها أو العمل الذي يتعاونون جميعاً على إنجازه .

لكن هذا الكلام فى أغلب الأحيان يكون قليل الجدوى .

ولو أن كل واحد منهم انصرف إلى نفسه يتعهدّها ، وإلى عمله الخاص يتقنه ، وإلى واجبه المنوط به يجيده ، ويبتكر الطرق للنبوغ به ؛ لكان ذلك أربى للإنتاج ، وأزكى عند الله !! .

ولعل هذا سرُّ الأمر الذى صدر للصحابة أن يخفّفوا من مناجاتهم للرسول الكريم ، وأن يقدّموا بين يدي نجواهم صدقة !! .

إنّ الإحسان للفقراء قربة ميسرة فى كل أن .

فإذا أراد أحد أن ينال حظوة عند الله وعند رسوله فليتصدّق ، فهذا مجال رحب للشواب المطلوب .

وهو أولى من الجلوس عند رسول الله رغبة فى الجلوس فحسب .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ

صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾

على أن هذا التوجيه لا يعنى فرض ضريبة على كل من يريد مخاطبة صاحب الرسالة ، فإن الكلام معه مباح ، بل قد يجب فى شؤون كثيرة ، وإنما المقصود تنبيه المؤمنين إلى الطريق الصحيح لمثوبة الله ، وتوفير الوقت لصاحب الرسالة حتى لا يشغله - بلا ضرورة - هواة الجلوس مع العظماء .

لذلك قال عز وجل :

﴿ أَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذ لَمَّا تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ

عَلَيْكُمْ فَاقْبُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢﴾

إن مجالسة العظماء كما علمتنا التجارب وسيلة للزلفى ، ومضيعة للوقت ، وشغل عن واجبات كثيرة .

فلا عجب إذا وضعت القيود عليها ونُبّه إلى ما هو أجدى منها .

(١) المجادلة : ١٢ .

(٢) المجادلة : ١٣ .

آفات الفراغ

فى أحضان البطالة تولد آلاف الرذائل ، وتختمر جرائم التلاشى والفناء .
إذا كان العمل رسالة الأحياء فإن العاطلين موتى .
وإذا كانت دنيانا هذه غراساً لحياة أكبر تعقبها ، فإن الفارغين أحرى الناس أن
يُحشروا مُفلسين لا حصاد لهم إلا البوار والخسران .
وقد نبّه النبي ﷺ إلى غفلة الألو ف عما وُهبوا من نعمة العافية والوقت فقال :
«نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة ، والفراغ» .
أجل .. فكم من سليم الجسم ومدود الوقت يضطرب فى هذه الحياة بلا أمل
يحدوه ، ولا عمل يشغله ، ولا رسالة يخلص لها ويصرف عمره لإنجاحها .
ألهدا خلق الناس ؟ . كلا ، فالله عزّ وجلّ يقول :

﴿ أَحْسِبْنِمُ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾ (١)

إنّ الحياة خلقت بالحق ، الأرض والسماء وما بينهما .
والإنسان فى هذا العالم يجب أن يتعرّف هذا الحق وأن يعيش به .
أمّا أن يدخل فى قوقعة من شهواته الضيقة ، ويحتجب فى حدودها مذهولاً عن
كل شىء فبئس المهاد ما اختار لحاضره ومستقبله !! .



ومن أصدق ما رواه «الشافعى» فى أسس التربية هذه الكلمة الرائعة : « إذا لم
تشغل نفسك بالحق شغلتك بالباطل » .
وهذا صحيح ؛ فإنّ النفس لا تهدأ .

إذا لم تدّر فى حركة سريعة من مشروعات الخير والجهاد والإنتاج المنظم لم تلبث أن
تنهبها الأفكار الطائشة ، وأن تُلْفَها فى دوامة من الترهات والمهازل .

(١) المؤمنون : ١١٥ ، ١١٦ .

وأفضل ما تصون به حياة إنسان أن ترسم له منهاجاً يستغرق أوقاته ، ولا تترك فرصة للشيطان أن يتطرق إليه بوسوسة أو إضلال .

وتوزيع التكاليف الشرعية في الإسلام منظور فيه إلى هذه الحقيقة ، ألا يُترك للنفس فراغ يمتلئ بالباطل ، لأنه لم يمتلئ من قبل بالحق .

ويشرح « ديل كارنيجي » هذا فيقول : (إننا لا نحسُّ أثراً للقلق عندما نعكف على أعمالنا ، ولكن ساعات الفراغ ، التي تلي العمل هي أخطر الساعات طُراً .

فعندما يتاح لنا وقت فراغ لا تلبث شياطين القلق أن تهاجمنا ، وهنا نتساءل : أترانا نحصل من الحياة على ما نشتهى ؟ . أترى كان الرئيس يعنى شيئاً بملاحظته التي أبدأها اليوم ؟ . أترانا مرضى ؟ .

ذلك أن أذهاننا تشبه أن تكون خاوية عندما تفرغ من العمل ، والطلاب في دروس الطبيعة يعلمون أن الطبيعة تمتقت الفراغ ، تريد تجربة على ذلك ؟ . أخذتُ ثقباً في مصباح كهربائي مفرغ من الهواء ، وسترى أن الطبيعة تدفع بالهواء إلى داخل المصباح ليملاً ما فيه من خلاء ، كذلك تسرع الطبيعة إلى ملء النفس الفارغة ، بماذا ؟ بالعواطف والإحساسات غالباً . لماذا ؟ لأن مشاعر القلق والخوف والحقد والغيرة والحسد تندفع بقوة بدائية عنيفة متوارثة من عهد الغابة ، وتلك المشاعر من القوة بحيث يمكنها أن تبدد السلام من نفوسنا والاستقرار من عقولنا) .



من حق المرء إذن أن يحذروا آفات الفراغ ، وأن يحصنوا النفوس من شرورها .
وأمثل الوسائل في هذه الحالات وضع سياسات محكمة للإنشاء الدائم ، والبناء المستمر .

فإن شحن الأوقات بالواجبات ، والانتقال من عمل إلى عمل آخر - ولو من عمل مرهق إلى عمل مرفه - هو وحده الذي يحمينا من علل التبطل ولوثات الفراغ .

وأحسب أن المجتمع يستطيع الخلاص من مفاسد كثيرة لو أنه تحكم في أوقات الفراغ ، لا بالإفادة منها بعد أن توجد ، بل بخلق الجهد الذي يستنفد كل طاقة ، ويوجه هذا وذاك إلى ما ينفعه في معاشه ومعاذه .

فلا يبقى مجال يشعر امرؤ بعده أنه لا عمل له .

من قديم عرف المصلحون أنّ بطلانة الغنى ذريعة إلى الفسوق .

إنّ الشبابَ والفراغَ والجدّةَ مُفسِدةً للمرءِ أيّ مفسدُهُ

ونضمُّ إلى هذا أن بطلانة الفقراء تضييع لقدرة بشرية هائلة ، وبعثرة مخزية لما أودعه الله في العضلات والأعصاب والأفئدة من طاقات لو فُجِّرت لغيرت وجه العالم .

وأحق الأنظمة بالقبول والتشجيع ما رعى هذه الحقيقة ورَتَّب عليها تعاليمه .

والإسلام يملك على الإنسان أقطار نفسه من هذه الناحية ، فإنّ أغلب شرائعه يدور على جهاد النفس وجهاد الناس .

وجهاد النفس فطامها عمّا تشتهى من أنام ، أو تجنح إليه من مناكر .

وجهاد الناس منع مظلهم من إفساد الحياة وخلخلة الإيمان ، والإصلاح في جنبااتها .

وكلا الجهادين يستغرق العُمُر كلّهُ لحظةً لحظةً ، ولا يستبقى فرصاً للعبث والذهول والغفلات .

لقد كان رسول الله ﷺ يسأل الله الاستمساك بدينه مع نبض قلبه بالحياة ، فيدعو : « يا مُقلبَ القلوب ثبّت قلبى على دينك » (١) .

وكان يقول : « اللهمّ رحمتك أرجو ، فلا تكلىنى إلى نفسى طرفة عين ، وأصلح لى شأنى كلّهُ ، لا إله إلا أنت » (٢) .

وهذا الاستمداد اليقظ الدائب هو أساس الاكتمال النفسى .

أما شغل الوقت كلّهُ بالجهاد العام بعد ذلك فأمر معروف فى سيرته ، فما استراح من مناهضة الكفر فى فح من فجاج الجزيرة إلا ليتحوّل إلى فح آخر يعمره بالإيمان والتقوى .

(١) أبو داود .

(٢) الترمذى .

وقد جاء صاحبه من بعده أبو بكر وعمر فلم يدعاً للمسلمين مجالاً لعودة ، فرموا بجيوشهم على معاقل الطغيان فى الأرض ، فما هى إلا سنوات معدودات حتى امتلأت بقاع العالم بأضواء الإيمان .

فماذا حدث بعد أن ترك المسلمون هذه الواجبات المهيمنة على أوقاتهم كلها ؟ .

فرغ بعضهم لبعض ، وعاثت بينهم الفتن !! .

ثم خلفت خُلوْف جعلت من تفسير المتشابه فى كتاب الله مَضِيعَةً للوقت الواسع الرخيص !! .

فأساءت بذلك إلى آيات الكتاب كُلِّها مُحْكَمَها ومتشابهها .



إنَّ الحق إذا استنفد ما لدى الإنسان من طاقة مختزنة لم يجد الباطل بقية يستمدُّ منها .

وإذا استولى على قلبه ولبَّه فلا مجال لوساوس اللهو وهو اجس الريبة .

ويتساءل « ديل كارنيجى » : (ما السبب فى أن أمراً هيناً كالاستغراق فى العمل يطرد القلق ؟ . السبب فى ذلك هو أحد القوانين الأساسية التى اكتشفها علم النفس وهو : من المحال لأىِّ ذهن بشرى مهما كان خارقاً أن ينشغل بأكثر من أمر واحدٍ فى وقت واحد) .

وهذا صحيح ، وهو قريب من قول الله عزَّ وجل :

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِيْ جَوْفِهِ ﴾ (١)

إنك كما تعجز عن تخيُّل شيئين فى وقت

واحد ، فكذلك تعجز عن الجمع بين إحساسين متناقضين .

ليس فى استطاعتنا أن نتحمَّس لعملٍ مثير ونُحسَّ القلق فى الوقت نفسه ، فإنَّ واحداً من هذين الإحساسين يطرد الآخر .

(١) الأحزاب : ٤ .

وهذا القانون البسيط هو الذى مكّن الأطباء النفسيين الملحقين بالجيش أن يأتوا بالعجائب فى خلال الحرب ، عندما كان يأتى إليهم الجنود الذين ضَعُضَت الحرب أعصابهم ، كانوا يقولون : أشغلوهم بعملٍ ما .

إنَّ الفراغ فى الشرق يدمّر ألوف الكفائيات والمواهب ، ويخفيها وراء رُكام هائل من الاستهانة والاستكانة ، كما تختفى معادن الذهب والحديد فى المناجم المجهولة!! .

ويستتبع هذا الإهدار الشنيع لقيمة العمل والوقت مصائب لا حصر لها فى الأحوال النفسية والاجتماعية والسياسية .

يُروى عن عمر بن الخطاب أنه قال : إنى لأرى الرجل فيعجبني ، فإذا سألت عنه ف قيل : لا حرفة له ، سقط من عينى .

وفى الحديث : « إنَّ الله يحب المؤمن المحترف » .

فلا جرم أن شعوباً بأسرها تسقط من عين الله ، وتسقط من أعين أهل الجدِّ والإنتاج لأنها لا عمل لها ، استهلكها الفراغ وأسلمها للفناء ..

وعندى أن العلة الأولى لتخلف الأمة العربية والشعوب الإسلامية ما غلب على أحوالها النفسية والاجتماعية من قعود واستكانة وتقايس .

ويستحيل أن تحرز هذه الأجيال الغفيرة من البشر سهماً من نجاح فى الدنيا أو فلاح فى الأخرى إلا إذا تغيّر أسلوبها فى الحياة ، وأمّحت من ربوعها أثار البطالة والفراغ .



لا تدع التوافه تغلبك على أمرك

تَهَيَّب الإنسان للكبائر يبعده عن مواقعتها وينجيه من غوائلها .

يَبْدُ أنَّ المرء الذي يخشى على حياته أن يتناول جرعة كبيرة من السم - لوضوح خطرهما - قد يستهين بتناول أجزاء دقيقة منها تكون مطوية في أطعمة مكشوفة ، أو أطباق قدرة ، أو أيدٍ ملوثة ، أو ما شابه ذلك .

ومن ثمَّ يصيب بدنه من العلل ما قد يُودى به ، مثلما تُودى به رصاصة قاتلة ، أو طعنة غادرة .

وإرهاباً للمؤمنين من اقتراف الصغائر ، وخوفاً على كيانهم النفسى والاجتماعى من تجمُّعها ، أهاب النبيُّ بأمته أن تحذرها ، وأن تتنزَّه عن فعلها ، وأن تتطهَّر حيناً بعد حين من أثارها .

صحيح أنَّ الهدف الأكبر من رسالته هو محاربة الشرك ، وإزالة أوهامه عن الأفكار والضمائر .

وقد استطاع في حياته أن يسقط دولة الأصنام ، وأن يقيم أمة تعبد الله وحده . ومع ذلك فقد حذَّر من أمور قد يستريح الشيطان من إقبال الناس عليها استراحته من سقوطهم في حماة نفسه ، فقال : « إِنَّ الشيطان قد يئس أن تُعبد الأصنام في أرض العرب ، ولكنه سيرضى منكم بدون ذلك بالمحقرات ، وهى الموبقات يوم القيامة»^(١) . وفى حجة الوداع - وهو يرسى قواعد السلوك الكامل - قال : « أَيُّهَا النَّاس ، إِنَّ الشيطان قد يئس أن يُعبد فى أرضكم هذه أبداً . ولكنَّه إن يُطع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم ، فاحذروه على دينكم » .

قال « ديل كارنيجى » : (إننا غالباً ما نواجه كوارث الحياة وأحداثها فى شجاعة نادرة وصبر جميل ، ثم ندع التوافه بعد ذلك تغلبنا على أمرنا ، ومن أمثلة ذلك ما قاله « صمويل بيبز » فى مذكراته عن « سيرهارى فان » حين سيق لتنفيذ حكم

(١) الطبرانى .

الإعدام فيه بضرب عنقه ، فإنه لم يلتمس العَفْو ولم يطلب الرحمة ، وإنما رجا
الجلاد ألا يضرب بسيفه موضعاً في عنقه كان يؤلمه . ومن أمثلة ذلك أيضاً ما كتبه
«أدميرال بيرد» في مذكراته عن ليالى الظلام والزمهرير التى قضاهما فى القطب
الجنوبى ، فقد ذكر أن رجاله كانوا منشغلين بتوافه الأمور عن الكوارث المحدقة بهم ،
وهم يعيشون فى جوِّ درجة حرارته ثمانون تحت الصفر . قال «بيرد» : كان رجالى
يتخاصمون إذا اعتدى أحدهم على المساحة المخصصة لنوم زميل له واستقطع لنفسه
منها بضع بوصات ، ومن ثمَّ رجل من رجالى كانت نفسه تعاف الطعام فى مواجهة
زميل له اعتاد أن يمضغ اللقمة ثمانياً وعشرين مرة قبل أن يزدردّها ، ولستُ أعجَبُ
لهذا ، فإنَّ صغائر كهذه فى معسكرٍ قطبى يسعها أن تسلبَ عقولَ أشدِّ الناس دُرْبَةً
على الطاعة والنظام) .

ويُقَصُّ علينا «كارنيجى» حكاية شجرة ضخمة نبتت منذ أربعمئة عام ،
وتعرضت فى حياتها الطويلة للصواعق أربع عشرة مرة ، وهزتها العواصف العاتية طوال
أربعة قرون متوالية ، ومع ذلك ظلَّت هذه الشجرة جاثمة فى مكانها كأنها جبل عتيد ،
ثم حدث أخيراً أن زحفت جيوش الهوام والحشرات على هذه الشجرة الضخمة فما
زالت بها تنخرها وتقرضها حتى سوّتها بسطح الأرض ، وجعلتها أثراً بعد عين . لقد
انمحت ماردة الغابة التى لم تهزمها الصواعق ولم تنل منها الأنواء ، اختفت من الوجود
بفعل هوامٍ هى من الضالّة بحيث يستطيع الإنسان أن يسحق إحداها بين سبابته
وإبهامه ، ألا ترانا مثل هذه الشجرة ؟ أو لسنا ننجو من الأعاصير التى تعترض حياتنا
ثم نستسلم بعد ذلك للتوافه التى تلتهم حياتنا التهاماً .

والأمثلة التى ذكرها المؤلف من واقع الحياة التى يعالج شئونها قد سبق النبىُّ إلى
ضربِ أمثلة تشبهها مأخوذة من طبيعة البيئة التى عاش العرب فيها ، فعن عبد الله
بن مسعود ، قال رسول الله ﷺ : « إياكم ومُحَقَّرَاتِ الذنوب ، فإنَّهنَّ يجتمعن
على الرجل حتى يهلكنه ، وإنَّ رسول الله ضرب لهنَّ مثلاً كمثل قوم نزلوا أرض
فلاة ، فحضر صنيع القوم ، فجعل الرجل ينطلق فيجىء بالعود ، والرجل يجىء
بالعود حتى جمعوا سواداً ، وأججوا ناراً ، وأنضجوا ما قدفوا فيها » (١) .

(١) مسند أحمد .

وروى عن سعد بن جنادة قال : لما فرغ رسول الله من « حُنَيْن » نزلنا قَفْرًا من الأرض ليس فيه شيء ، فقال النبي ﷺ : « اجْمَعُوا .. مَنْ وَجَدَ شَيْئًا فَلْيَأْتِ بِهِ ، وَمَنْ وَجَدَ عَظْمًا أَوْ سِنًّا فَلْيَأْتِ بِهِ » . قال فما كان إلا ساعة حتى جعلناه ركامًا ، فقال النبي ﷺ : « أَتْرُونَ هَذَا ، فَكَذَلِكَ تَجْتَمِعُ الذُّنُوبُ عَلَى الرَّجُلِ مِنْكُمْ كَمَا جَمَعْتُمْ هَذَا ، فَلْيَتَّقِ اللَّهُ رَجُلٌ فَلَا يَذُنِبُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً فَإِنَّهَا مُحْصَاةٌ عَلَيْهِ » .

وقد علم أولو النهى من تجاربهم أن هناك أشياء تبدر من الإنسان وهو غير آبه ولا يقظ لها ، يعدها الآخرون عليه ، ويستنتجون منها أفكارًا أو يروون وراءها نيات غريبة . وقد تترتب على ذلك نتائج فادحة ، كما قيل :

إِنَّ الْأُمُورَ صَغِيرًا مِمَّا يَهْجِي لَهَا الْعَظِيمُ !!
فيحسن بالكيس أن يتدبر ما يصدر عنه من أفعال ، ربما لم يلتفت إليها لصغرها ، ولكنها قد تعقب الكبير من الشرور .

وكما أن تجمع الصغائر مخوف العقبي على حياة الإنسان ، فإن تجسيم الصغائر بحيث تبدو إحداها وقد حجبت ما يجاورها من خير ليس من الإنصاف في شيء . ومن المؤسف أن بعض الناس يقع على السيئة في سلوك شخص ما فيقيم الدنيا ويقعدها من أجلها ، ثم يعمى أو يتعمى عما تتلىء به حياة هذا الشخص من أفعال حسان وشمائل كرام .

والنظر الذى يثبت على الصغائر لا يعدوها ولا يعتذر عنها بما يجاورها من خير وكمال هو نظر جائر .
وقلما يقود صاحبه إلى راحة .

إن الله عز وجل يتجاوز عن التوافه ويغفر اللّم لكل مؤمن ينشد الكمال ويصبغ به عمله على قدر استطاعته ، قال عز وجل :

﴿ إِن تَجِدُوا كِبَارًا تَزَوَّجُوا مِنْهُمْ عَنْكُمْ وَسَيَّارَتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ (١)

(١) النساء : ٣١ .

وجميل فى أجزية الله للناس أن يترك لهم فلتات الطباع وزلات الأقدام .
وجميل من الناس أن يعاشر بعضهم بعضاً على هذه القاعدة من السماحة ، وفى ذلك قال الشاعر :

إذا كنتَ في كل الأمور معاتباً صديقك ، لم تلقَ الذي لا تعاتبه
فَعشْ واحداً أو صلْ أخاكَ فإنَّه مُقارِفُ ذَنْبِ مرَّةٍ ومُجانِبُه
إذا أنتَ لم تشربَ مراراً على القَدَى ظمئتَ وأيُّ الناسِ تصفو مشاربه
ومن ذا الذى تُرضى سجاياه كلُّها كفى المرءُ نُبالاً أن تُعدَّ معايبه

وهذه القاعدة إذا حسن تطبيقها فيما بين الأصحاب من أواصر ، وما يعرض لعلاقاتهم من هزات ، فهى بين الزوجين ألزم ، وللسيطرة على حياتهم أحب وأحكم .
فإن ضاق الزوج بغلظة من امرأته تذكّر أنّ لها صواباً .

وإن حزن لجانب من نفسها نظر إلى جانب آخر يسره منها .
وإلى ذلك يشير رسول الله ﷺ بقوله : « لا يَفْرِكُ - لا يكره - مؤمن مؤمنةً ، إن كره منها خلقاً رضى منها آخر » (١) .

على أنّه من المؤسف أن كثيراً من التوفاه تعصف برشد الألوفا المؤلّفة من الناس ، وتقوِّض بيوتهم ، وتهدم صداقاتهم ، وتذرهم فى هذه الدنيا حيارى محسورين .
ويشرح « ديل كارنيجى » عواقب الاندفاع مع وحى هذه التوفاه ، فيقول : (إنَّ الصغائر فى الحياة الزوجية يسعها أن تسلب عقول الأزواج والزوجات ، وتسبب نصف أوجاع القلب التى يعانىها العالم .

أو ذاك على الأقل ما يؤكّده الخبراء ، فقد صرّح القاضى « جوزيف سابات » من قضاة شيكاغو بعد أن فصل فى أكثر من أربعين ألف طلاق بقوله : إنك لتجدنّ التوفاه دائماً وراء كل شقاء يصيب الزواج .

(١) مسلم .

وقال « فرانك هوجان » النائب العام فى نيويورك : إن نصف القضايا التى تُعرض على محاكم الجنايات تقوم على أسباب تفاهة ، كجدال ينشأ بين أفراد أسرة ، أو من إهانة عابرة ، أو كلمة جارحة ، أو إشارة نابية .

هذه الصغائر اليسيرة هى التى تؤدى إلى القتل والجريمة .

إنَّ الأقلين منَّا فُساة بطبائعهم ، يبيدُ أن توالى الضربات الموجهة إلى ذواتنا وكبريائنا وكرامتنا هو الذى يسبب نصف ما يعانىه العالم من مشكلات) .

هذا الكلام الذى يصف علل الجرائم فى مدن أمريكا يمكن أن ننقله بنصّه فى وصف علل الجرائم التى تقع فى مدننا وأريافنا .

والمواقع أن سوء التصوُّر للأمور ، وشدة الإحساس بالكرامة الخاصة ، والمبادرة إلى تفسير أىّ تصرّف بأنه احتقار لا يغسله إلا الدم ، وغير ذلك من التخيُّلات التى تضخمُ التوفاه هو السبب الأول لما تشهد وتقرأ من أحداث مروّعة .

والعلاج ؟ .. صقل مرآة الذهن بحيث تلتقط صوراً حقيقية لما تحفل به الحياة . صوراً لم تفسدها المبالغة ، ولم يشوِّها الهوى .

ثم الحكم على هذه الصور فى نطاق النظرة الرحبة . النظرة التى تضع النظائر والنقائص فى جوار واحد ، فلا تنسى الخير إذا هاجها شر .

وبذلك يتلاشى أغلب ما يحسه المرء من شقاء ، وما يتورط فيه من أخطاء .



لو أن أيدينا يمكنها أن تمتد إلى الماضي لتمسك حوادته
المُدبّرة ، فتغيّر منها ما تكره ، وتحوّرنا على ما تحب ؛ لكانت
العودة إلى الماضي واجبة ، ولهرعنا جميعاً إليه ، نحمو ما ندمنا
على فعله ، ونضاعف ما قلّت أنصبتنا منه .

أما وذلك مستحيل فخيرٌ لنا أن نكرّس الجهود لما نستأنف من
أيام وليالٍ ، ففيها وحدها العوّض .

محمد الغزالي

قضاء وقدر

إحساس المؤمن بأنَّ زمام العالم لن يفلت من يد الله يقذف بمقادير كبيرة من الطمأنينة في فؤاده .

إذُ مهما اضطربت الأحداث وتقلبت الأحوال فلن تثبتَّ فيها إلا المشيئة العليا :

﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١)

وهذا يفسرُ ركون المسلم إلى ربِّه بعد أن يؤدِّي ما عليه من واجب .

إنَّه يتوكل عليه ويستريح إلى ما يتمخض عنه المستقبل من نتائج بعد ما بذل جهده فيما وُكِّلَ إليه من عمل وإعداد واحتياط .

والحقُّ أنَّه لا معنى لتوتر الأعصاب واشتداد القلق بإزاء أمور تخرج عن نطاق إرادتنا .

قد يقرع الإنسان سنَّ الندم على تفريطه ، وقد يستوجب أقسى اللوم على تقصيره .
أمَّا أن يطلَّع القدرُ عليه بما لا دخل له فيه فهو ما لا مكان فيه لندم أو ملام ،
وبالتالي لا مكان فيه لقلق أو ريبة .

ومن ثمَّ ينبغى أن نستقبل الدنيا بيقين وشجاعة . ويعجبني قول عليٍّ :

أيُّ يوميٍّ من الموت أفـررُّ ؟ يوم لا يُقـدَرُ ؟ أو يوم قُـدِرَ ؟
يوم لا يُقـدَرُ لا أحـذرُه ومن المقدور لا ينجو الحـذِرُ !!

بهذا المنطق يواجه الرجل العُطوب وهو جرىء .

أمَّا إذا فرغتُ نفسه من الله ، ونظر إلى الأحداث كأنها موج يتدفع مدأً وجزراً ،
يغرق فيها من يغرق ، وينجو من ينجو ، فإنه يحيا بفؤادٍ هواء ، تلعب به
الأحداث والظنون .

(١) يوسف : ٢١ .

إنَّ الركون إلى القدر - وهو غير القول بالجبر - والبراءة من الحول والطول يورث جراءة على مواجهة اليوم والغد ، ويضفى على الحوادث صبغة تحبب بغيضها ، وتجعل المرء يقبل - وهو مبتسم - خسارة النفس والمال .

وذاك ما عنته الآيات الكريمة : ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ

فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ ﴿١﴾

يعنون كسب المعركة بالنصر ، أو الموت فيها دون الظفر بها ، وهو حسن كذلك ، لأن ما عند الله من مثوبة محفوظ مضمون .

أما الذين لا دين لهم فهم إن انتصروا أو انهزموا بين عذابين : أجل أو عاجل !!

﴿ وَتَحْنُ تَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ وَعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا

فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿٢﴾

هذا موقف المؤمنين بالأقدار يتسم بالقوة والتحدى ، ولا شائبة فيه لريبة أو استخذاء . غير أن كثيراً من الناس يجهلون هذه الحقيقة أو يجحدونها ، ويباشرون أعمالهم وهم يحملون بين جوانبهم هموماً مقيمة ، ومشاعر عقيمة .

وهم لا يجزعون من أحزان تصيبهم فحسب ، بل يجزعون من أحزان يتوقعونها ، ويفترضون أن المستقبل قد يرميهم بها .

وكم يجمع بهم الخيال فيملأ حياتهم بأشباح الموت والدمار ، ويوهمهم أنهم بين الحين والحين معرضون لهجوم من هنا وغدر من هناك !!

قال « ديل كارنيجى » : (لكن كثيراً من الرجال الناضجين لا تقل مخاوفهم سخفاً عن مخاوف الأطفال والصبيان ، وفى استطاعتنا جميعاً أن نتخلص من تسعة أعشار مخاوفنا تَوّاً لو أننا كففنا عن اجترار خواطرنا ، واستعنا بالحقائق المدعومة بالإحصاء ، لنرى إن كان هناك حقاً ما يبرر تلك المخاوف .

إن شركة « لويد » بلندن ، وهى أشهر شركات التأمين فى العالم ، قد ربحت ملايين الجنيهات من استغلالها ميل الإنسان إلى التوجس من أبعد الأمور احتمالاً . . هذه الشركة تراهن الناس على أن الكوارث التى يخشون حدوثها ، ويساورهم القلق من أجلها ، لن تحدث أبداً .

(٢) التوبة : ٥٢ .

(١) التوبة ٥١ - ٥٢ .

على أنها بدهاءة لا تسمى هذا العمل مُراهنةً ، بل تسميه « تأمينا » ، وقد ظلت هذه الشركة تواصل أعمالها بنجاح مائتى سنة .

وما لم تتغير طباع الناس فستواصل هذه الشركة نجاحها خمسين قرناً أخرى ، وستظل تقبل التأمين على الأحذية والسفن ، وغير ذلك ، لأن الكوارث التى يتوقعها الناس لا تقع بالكثرة التى يتصورونها) .

الفرع من المستقبل المجهول ، وتوقع الخسار الفادح ، والشعور بالوَهْن عن حمل هذه المصائب المتوهمة هو سر قيام شركات التأمين وتغلغل فروعها فى أرجاء الحياة العامة . ومن هذا الفرق فى الحقيقة - بين ما يقع فعلاً ، وما يقع وهمًا - تستولى هذه الشركات على قناطير مقنطرة من الذهب والفضة ، مستغلة خشية الخوافين على أعمارهم حيناً ، وعلى أموالهم حيناً آخر !! .

وقد حاول « ديل كارنيجى » أن يشفى صرعى الأوهام بسرد إحصاءات صادقة عن النوازل التى تقع بالبشر فى البر والبحر .

وهو علاج فى نظرنا لا يحسم العلة التى تنتشر حتماً حيث تفرغ القلوب من الإيمان .

إن الحضارة الحديثة سيئة العلم بالله ، وهى بالتالى مزعزة الثقة فيه .

ولذلك تعالج أدواءها بأدوية رديئة ، من مراهنه تسمى تأمينا ، ومن إحصاءات تبين للمرعوبين أن نسبة الإصابات أخف مما يتصورون .

ونحن ننادى بأخذ الحيطه للمستقبل ، وإرصاد العوض لكل مصاب ، ولكننا نستنكر المتاجرة بالذعر الناشئ عن خور اليقين كما تفعل شركات التأمين ، ونستنكر الفرق الذى يستحوذ على الجبناء عندما يدفعهم الشك إلى ترقب الموت كامناً فى كل أفق . !! .

واسمع إلى قصة تاجر اعتاد أن يعذب نفسه بهذه الأفكار يرويها « كارنيجى » : (ماذا لو تصادم القطار الذى ينقل البضاعة ؟ ماذا لو أنهار جسر فى اللحظة الذى يمر القطار فيها ؟ نعم إن البضاعة مؤمن عليها ، ولكنه يخشى إن لم تصل الفاكهة فى

الوقت المحدد أن يفقد عملاءه . ولقد أجهد نفسه من فرط القلق حتى خُيِّل إليه أنه أصيب بِقَرْحَةٍ فِي المَعْدَةِ ، فذهب إلى الطبيب . فأكد له الطبيب أنه سليم معافى إلا من توتر أعصابه . قال مستر « جرانت » : لقد أَحْسَسْتُ عندما قال لى الطبيب هذا كأنما أُخرجت من الظلمات إلى النور ، وأخذتُ أسائل نفسي : كم عربية من عربات البضاعة استخدمت في خلال العام المنصرم ؟ ، وكان الجواب : نحو خمسة وعشرين ألف عربية ، وعدتُ أسأل نفسي : كم من هذه العربات تحطَّم لسبب من الأسباب ؟ ، وكان الجواب : خمس عربات . . . حينئذ قلتُ لنفسي : خمس عربات من خمسة وعشرين ألف عربية !! أتدرى ما معنى هذا ؟ .

معناه أن معدّل نسبة الخسارة هو عَرَبَةٌ واحدةٌ من كل خمسة آلاف عربية « فَعَلَامَ القَلْقُ إِذْنُ ؟! » .

أقول : وبث الطمأنينة في النفوس - بتبيان الحقائق على هذا النحو الحاسم - شيء حسن .

ولكنه لا يحصّن ذوى الأمزجة السود والهواجس الرجراجة .

إنَّ الشخص المتشائم ينكصُّ أمام التخيّلات التى تنعقد سحائبها من نفسه .

وما دام ضعف الإيمان يسيطر عليه فهو سيفترض النحس مقبلاً عليه مع أندر نسبة للشّر يمكن أن تقع ، ولن تَقَرَّ نفوس هؤلاء إلا إذا خالطها محض الإيمان بالله والتسليم له ، والرضا بما يقدره .

وتقبّل أسوأ الفروض على أنها قضاء الله الذى لا مفرّ منه .

وذاك ما يوصى به الإسلام . قال رسول الله ﷺ : « لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره ، وحتى يعلم أنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه » (١) .

ومثل هذا الشعور يريح من عناء كثير ، ويزيح همومًا ثقيلة ، ولذلك قال رسول الله : « من سعادة ابن آدم رضاه بما قضى الله له ، ومن شقاوة ابن آدم تركه استخارة الله ، ومن شقاوة ابن آدم سنخه بما قضى الله له » (٢) .

(١) الترمذى .

(٢) الترمذى .

ويجب أن نؤكد مرة أخرى أن دائرة الاستكانة والتسليم تبدأ بما يغلب الإرادة المعتادة ، وبما يخرج عن نطاق الاختيار الحرّ .

فلا احتجاج بقدر ، ولا مكان للقول به حيث تستطيع أن تفعل وأن تترك .
أما بعد أن تبلغ بإرادتك مداها فدع الأمور لمدبرها الأعلى ينتهي بها حيث يشاء دون نزق أو قلق .

والغريب أن بعض المؤمنين يستحمق ويلوذ بالسكون والتجرد ، أو بالقعود والتماوت باسم التعويل على الله ، وإسلام القياد له .

وهذا جنون وكفران لا عقل وإيمان .

ويمثّل هؤلاء قول الشاعر :

والسعى للرزق - والأرزاق قد قُسمتْ -
بغى الأإنّ بغى المرء يصصره

هذا كلام فارغ !! .

وشأن الناس مع الله عجيب !! ذاك تاجر أمريكي يؤزّقه السهود ، لأنه من خوفه على رزقه يتوجّس أن ينهار جسر تحت بضاعته فلا تصل إلى عملائه ، وهذا شاعر عربى يريد أن يغطّ فى نوم عميق ، وألاً يتجشّم مؤنة سعى ، لأن الأرزاق مقسومة !! .
والحقيقة فى التوسط بين الطرفين المتنافرين ، فنؤدّى العمل المطلوب ، وننقى الرّيب عن أفئدتنا بعد أن أدينا ما علينا مستريحين لما يصنع الله بنا ، وهولن يصنع إلاّ الخير .

إنّ أحاديث القدر علاج للقلق والتشاؤم ، وليست ذريعة كسل أو خمول .



ومراقبة الأقدار القاهرة - خارج نطاق إرادتنا الحرّة - وملاحظة صنّع الله فيما تقد به من حلّ ومرّ وخير وشرّ ، يضبط العواطف ، ويجنبها الحدة والغلواء .

ولذلك ترى أولى الألباب والتجارب معتدلين فى فرحهم وحرزهم ، وسرورهم ونفورهم .

وقد يصل هذا الاعتدال إلى حدّ البرود ، وقلة الاكتراث ، ومقابلة المباحج والمصائب بشعور محايد ، وفى ذلك يقول أبو العلاء :

غير مُجد في ملتي واعتقادي نوح باك ولا ترثم شادي
وشبيهه صوت النعي إذا قيس بصوت البشير في كل ناد
أبكت تلكم الحمامة أم غنت على فرع غصنها المياد
ويقول المتنبي :

ألا لا أرى الأقدار مدحاً ولا ذماً فما بطشها جهلاً ولا كفها حلماً

والهدف الذي يريد هؤلاء الوصول إليه وإن اختلف تصويرهم له ، أو نددت عبارتهم
عنه ، هو الذي عنته الآية الكريمة :

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى
اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١﴾

وليس القصد مصادرة الطبع الإنساني في إحساسه بالألم والسرور .

وإنما القصد منع الاستغراق المذهل ، فإنَّ للفرحة الطاغية نشوة تخرج عن الصواب ،
ولللحزن الجاثم وطأة تسحق الإرادة .

والمؤمن الذي يبصر عمل الله في كل ما يمسه لا يتخبط بين هذه الانفعالات ،
فيرفعه هذا إلى القمة ، ويخفضه ذلك إلى الحضيض .

إنه يلوذ بالاعتدال ، وسيطر على أعصابه ، وتلك بعض ثمرات الإيمان بالقدر .
إنَّ الرجل الضعيف قد يُفزعُه المصاب ويشتت أفكاره ، فبدلاً من أن يختصر متاعه
بجابهة الواقع والاستعداد لقبوله ، يسترسل مع الأحزان التي تضاعف كآبته ولا تغيّر
شيئاً ، وانظر إلى ابن الرومي لما فقد ابنه كيف يقول :

وأولادنا مثل الجوارح أيها فقدناه كان الفاجع البين الفقد !!
هل السمع بعد العين يُغني مكانها ؟ أو العين بعد السمع تهدي كما يهدي !!

ثم يستبد الجزع بالرجل المكلوم ، فتتهار أعصابه ، ويرسل هذه الصرخة المجنونة :
وما سررتني إن بعثته بشوابه ولوأنه التخليد في جنة الخلد !!

ما قيمة هذه الإعوال والتمرد ؟ .

وما أثره في العاجل والآجل ؟ لا شيء إلا الحسرة .

(١) الحديد آية ٢٢ ، ٢٣ .

أما موقف اليقين الناضج والتسليم الكريم ، فتراه مثلاً في سيرة يعقوب لما جاءه بنوه هم يتباكون على فقد يوسف الذى أكله الذئب - كما يخبرون - لقد قال الرجل الذى غاب عنه ابنه :

﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾^(١)

وانتظر الرجل أن يؤوب الغائب المتردد بين الموت والحياة ، وطال الانتظار دون جدوى .

ومرّت السنون على الشيخ الأمل فى الغيب ، وإذا هو بدل أن يعود ابنه المرتقب يفقد ابنه الآخر ، وينكأ الجرح القديم جرحاً جديداً !! .

ماذا يصنع ؟ . أينفس عن جواه بالصراخ والجزع ؟ لا ، إنه يقول مرة أخرى :

﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾^(٢)

إنّ القنوط لم يصدمه فينشج بقول الشاعر :

وحُمَّلت زَفْرَاتِ الضُّحَى فَأَطَقْتَهَا وَمَالِي بِزَفْرَاتِ العِشَى يَدَانِ

كلا . لقد تحمّل المأساة الأخيرة بالعاطفة نفسها التى تحمّل بها الأولى ، وظلّ على تشبّثه برحمة الله ، يرمق الغد وفى فؤاده شعاع من رجاء لم تطفئه الأحداث ، وقال لأبنائه :

﴿ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِيَنَّكَ مِنَ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾^(٣)

من هذا السلوك العالى نلتمس الأسوة الحسنة ، ونتعلّم الثبات فى وجه العواصف القاسية .

وما عساك تفعل إذا أصابك ما تكره ؟ . إن كان تغيير المكروه فى مقدورك فالصبر عليه بلادة ، والرضا به حمق .

أما إذا كان ما عراك فوق ما تطيق ، فهل هناك حيلة أفضل من الاتزان ورباطة الجأش ؟ ! .

(١) يوسف آية : ١٨ .

(٢) يوسف آية : ٨٣ .

(٣) يوسف : ٨٧ .

وهل هناك مسلك أرشد من الاعتراف بالواقع ، ونشدان تغييره من صاحب الإرادة العليا ، وواهب الخير الجزيل ؟ .

إنّ وخزات الأحداث قد تكون إيقاظاً للإيمان الغافى ، ورجعة بالإنسان إلى الله .
وهذه النتيجة تحوّل الداء دواءً ، والمحنة منحة ، وتلك لا ريب أشهى ثمرات اليقين ، والرضا بما يصنعه ربُّ العالمين .

وهى ثمرة أحلى مما يذكره « ديل كارنيجى » عوضاً عن الإيمان بالقضاء والقدر ، إن الرجل يطلب من المصاب أن يتبدّل أمام الأنواء ، كما تتبدل قطعان الجاموس وجذوع الأشجار !! وهو معذور فيما يصف لأنه لم يقع على الدواء الذى بين أيدينا ، ولنسمع له يقول : (رفضت ذات مرّة أن أقبل أمراً مُحْتَمّاً واجهنى ، وكنتُ أحمق فاعترضت وتُرت وغضبت وحوّلت ليالىّ إلى جحيم من الأرق ، وبعد عام من التعذيب النَّفسانى امتثلت لهذا الأمر الحتم الذى كنتُ أعلم من البداية أنه لا سبيل إلى تغييره .

وما كان أخلقنى أن أردّد مع الشاعر « والت هويتمان » قوله :

« ما أجمل أن أواجه الظلام والأنواء والجوع ؟ » .

« والمصائب والمآسى واللّوم والتقريع ؟ » .

« كما يواجهها الحيوان ، وتواجهها من الأشجار الجذوع ! » .

ولقد أمضيت اثنى عشر عاماً من حياتى مع الماشية ، فلم أرَ بقرةً تبتئس لأن المرعى يحترق ، أو لأنه جفّ لقلة الأمطار ، أو لأن صديقها الثور راح يُغازل بقرة أخرى . إنّ الحيوان يواجه الظلام والعواصف والمجماعات هادئاً ساكناً ، ولهذا قلّ ما يصاب بانهياب عصبى أو قرحة فى المعدة !!) .

ذلك هو العلاج الحيوانى الذى يقترحه لمكافحة الأزمات !! .

وتلك هى الآثار المادية التى ينتظرها من ورائه !! .

ونحن المسلمون لا نرى فى هذا التبدّل المطلوب مثلاً أعلى لشفاء الإنسان مما يصيبه من أحزان .

إن التسليم لله أفضل من هذا التبدّل المنقطع .

وأين كلمات الشاعر « هويتمان » السابقة من قول الله عز وجل :

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ
وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾
الَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾
أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾



والمرونة فى مقابلة الشدائد بعض آثار الإيمان والرشد .
وحرى بالرجل الذى يدع العاصفة تمر أن يحسن التغلب عليها بعد أن تكون
حدتها قد انكسرت .

وهذه المرونة دلالة تأدب مع الله وسكينة فى ملاقاته قدره .
ثم هى فى معاملة الناس أنجع الوسائل لكبح جماحهم بل لامتلاك أنفسهم .
وفى الأثر : جربت اللين والسيف ، فوجدت اللين أقطع .
والمؤمن المرن يدور مع الأحداث لا دوران ضعف ونفاق ، ولكن كما يدور المصارع
فى الحلبة حتى لا يكشف مقاتله لخصم متربص .
وفى هذا يقول « ديل كارنيجى » كلاماً حسناً :
(إنَّ أحداً منا لم يُمنح القوة التى تجعله يقاوم ما ليس منه بُدُّ ، ثم يتبقى له بعد
هذه المقاومة جهد يمكنه من خلق حياة حافلة سعيدة .

عليك أن تختار واحداً من شيئين : إما أن تنحنى حتى تمر العاصفة بسلام ، وإما
أن تصدّى لها متعرضاً بذلك للهلاك .

لقد شهدت تجربة من هذا النوع فى مزرعتى ، إذ هبّت ريح عاتية على المزرعة ،
ولكن الأشجار لم تنحن للعاصفة ، بل تصدّت لها مُنتصبة الأعواد ، فلم تلبث أن
تكسرت وصارت حطاماً تذرّوه الرياح .

إنَّ أشجارى ليست لها حكمة الأشجار النامية فى مزارع كندا . لقد عهدتها دائمة
الخنصرة ، تنحنى للعواصف ، فتمر فى طريقها بسلام) .

(١) البقرة : ١٥٥ - ١٥٧ .

وهذا الكلام هو عندى أحسن تفسير لقول محمد رسول الله ﷺ : « مثل المؤمن كمثل الزرع لا تزال الريح تميله ، ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء . ومثل الكافر كمثل شجرة الأرز لا تهتز حتى تُستحصد » . وفى رواية : « مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تُفِيئُها الريح مرة وتَعْدِلُها أخرى حتى تهيج - أى تقوى وتنضج - . ومثل الكافر كمثل الأرزة المجدبة على أصلها - لا تميل مع ريح لصلابتها - حتى يكون أنجعافها مرة واحدة»^(١) - أى انكسارها .



وهذه المرونة فى ملاقة الواقع البغيض قد تكلفك الابتسام له ، وحمل النفس على حسن استقباله ، لا لأنك تودّ بقاءه ، بل تخفيفاً من شدة الضيق به ، على نحو ما قال الشاعر :

ولما رأيتُ الشيبَ لاح بعارضى	ومفرق رأسى قُلتُ للشيب مرحبا
ولو خفتُ أنى إن كفت تحيتى	تنكّب عنى ، رُمّت أن يتنكببا
ولكن إذا ما حلّ كُرهُ فسامحت	به النفس يوماً كان للكره أذهباً

وهذه النصيحة عينها هى التى يزجيهما لنا « كارنيجى » بقوله : (إن السرعة التى نتقبل بها الأمر الواقع - إذا لم يكن منه بدّ - مدهشة النتيجة ، فإننا لا نلبث حتى نوطد أنفسنا على الرضا بهذا الواقع ، ثم ننسأه بعدُ كلّ النسيان . يقول « وليم جيمس » : كن مستعداً لتقبّل ما ليس منه بدّ ، فإن هذا التقبّل خطوة أولى نحو التغلب على ما يكتنف الأمر من صعاب) .

وهذا الرضا ضرب من التعزية الجميلة والمواساة الحسنة ، ولا يسوغ أن يفهم منه عاقل أن مكاره الحياة أهداف مستحبة نسعى إليها فى اشتياق ورغبة .

من الذى يحبّ العمى ؟ . إنَّ الرسول الكريم كرهه لنفسه ، ودعا الله أن يمتّعه بحواسه كلّها ، وكل مؤمن بل كل إنسان يود أن يعيش إلى أن يوافيه أجله وهو سليم المشاعر .

لكن بعض الناس قد يبتلى بفقد عينيه ، فهل ندعه للألم يحزّ فى نفسه حتى يذوب حسرة ؟ كلا .

(١) البخارى .

هنا يجيء قول الرسول الكريم راويًا عن ربّه : « إذا سلبتُ من عبدى كريمته وهو بهما ضنين لم أرضَ له ثوابًا دون الجنة ، إذا هو حمدنى عليهما » (١) .

هذه تعزية كريمة ، وسلوى يجد المحزون فى بشارتها ما يخفف جواه ويُذهب بلواه ، فهل يفهم من هذا الكلام المبين أنّ العمى غاية تُطلب ؟ ، وأنّ آلام الدنيا درجات رفيعة يتعرّض لها طلاب الثواب وعشاق الجنة ؟!

إنّ تفكير المتصوّفة سقط فى هذه الهاوية ، وجرّ معه عوامّ المسلمين ، فضلل فى هذه الحياة مساعيهم ، وبدّد قواهم ، وجعل مثلهم العليا تتخبط فى آفاق داكنة من البأساء والضراء !! .

والسرّ هو الخلط بين دائرتين متميزتين كل التميّز ، منفصلتين أتم الانفصال .
دائرة « ما منه بدُّ » و « ما ليس منه بدُّ » .

ثم التسوية بين المسالك والمشاعر التى تجيش تلقاء كلّ منهما .
والحق أنّ كلتا الدائرتين لها مجالها وإيحاؤها .

فالرجل إذا وقعت به مظلمة يملك ردّها ويؤتّى القدرة على كفّها ، فإنّ صبره عليها جريمة ، ورضاه بها معصية .

أما إذا حلّت به مظلمة يعجز عن دفعها ، أو نابتة كارثة يعلم أن التخلص منها فوق قواه ، فيجب عليه أن يتحمّل وأن يتصبّر .

إنّ « الرضا بالقسمة » أصبح سبّة فى التفكير الإسلامى ، لأنّ الذين تلقوا الأمر وضعوه فى غير موضعه ، فسوّغوا به الفقر والكسل والخمول ، بدل أن يهوّنوا به كبوات السعى الجاد ، وهزائم العاملين المرهقين ، ومتاعب المظلومين فى وظائفهم ، وهم لا يستطيعون حيلة !! .

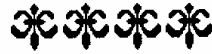
إنّ قول رسول الله : « اتّقِ المحارم تكن أعبدَ الناس ، وارضَ بما قسم الله لك تكن أغنى الناس » هو ما شرّحه « ديل كارنيجى » فى هذه الخلاصة : (لقد قرأت خلال الأعوام الثمانية الماضية كل كتاب ، وكل مجلة ، وكل مقالة عاجلت موضوع القلق ؛ فهل تريد أن تعرف أحكم نصيحة خرجتُ بها من قراءتى الطويلة ؟ . ها هى ذى ،

(١) البخارى .

أنصحك أن تدوّنوها فى ورقة ، وثبتها فى صقال مرأتك حتى تطالعها كل يوم ، وقد كتب هذه النصيحة ، بل هذا الدعاء ، دكتور « رينولد تايبير » الأستاذ بمعهد الاتحاد الدينى بنيويورك :

هَبْنِي اللَّهُمَّ الصَّبْرَ وَالْقُدْرَةَ
لأَرْضِي بِمَا لَيْسَ مِنْهُ بَدًّا
وهَبْنِي اللَّهُمَّ الشَّجَاعَةَ وَالْقُوَّةَ
لأغَيِّرَ مَا تَقْوَى عَلَى تَغْيِيرِهِ يَدُ
وهَبْنِي اللَّهُمَّ السَّدَادَ وَالْحِكْمَةَ
لأُمَيِّزَ بَيْنَ هَذَا وَذَلِكَ

ثم قال : وإذن فلكى تحطم عادة القلق قبل أن تحطمك ارض بما ليس منه بدٌ) أو كما يقول محمد رسول الله ﷺ : « إرض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس » .



ويعجبني أن يواجهَ الإنسان هذى الحياة وعلى شفثيه بسمة تترجم عن رحابة الصدر وسجاجة الخلق وسعة الاحتمال ، بسمة ترى فى الله عَوْضًا عن كل فائت ، وفى لقائه المرتقب سلوى عن كل مفقود . ولنثبت هنا قصيدة الشاعر محمد مصطفى حَمَام ، فهى حافلة بهذه العاطفة السهلة الرقيقة ، عاطفة الرضاء والطمأنينة :

عَلَّمْتَنِي الْحَيَاةَ أَنْ أَتَلْقَى	كُلَّ أَلْوَانِهَا رَضًا وَقَبُولًا
وَرَأَيْتُ الرِّضَا يَخْفَفُ أَثْقَا	لِي وَيُلْقَى عَلَى الْمَآسَى سُدُولًا
وَالَّذِي أُلْهِمَ الرِّضَا لَا تَرَاهُ	أَبَدَ الدَّهْرِ حَاسِدًا أَوْ عَدُولًا
أَنَا رَاضٍ بِكُلِّ مَا كَتَبَ اللَّهُ	وَمُنْزَجٌ إِلَيْهِ حَمْدًا جَزِيلًا
أَنَا رَاضٍ بِكُلِّ صِنْفٍ مِنَ النَّاسِ	سِ لَثِيمًا أَلْفَيْتُهُ أَوْ نَبِيلًا
لَسْتُ أَخْشَى مِنَ اللَّثِيمِ أَذَاهُ	لَا ، وَلَنْ أَسْأَلَ النَّبِيلَ فَتِيلًا
فَسَحَّ اللَّهُ فِي فِؤَادِي فَلَا أَرَى	ضِيًّا مِنَ الْحَبِّ وَالْوَدَادِ بَدِيلًا
فِي فِؤَادِي لِكُلِّ ضَيْفٍ مَكَانُ	فَكُنِ الضَّيْفَ مُؤْنَسًا أَوْ ثَقِيلًا



ضلّ من يحسب الرضا عن هوان
فالرضا نعمة من الله لم يسـ
والرضا آية البراءة والإيـ
علمتني الحياة أن لها طعم
فتعودت حالتَيْها قريراً
أيها الناس كلنا شارب الكأ
نحن كالروض نُضرة وذُبولا
نحن كالريح ثورة وسكوناً
نحن كالظن صادقاً وكذوباً



أو يراه على النفاق دليلاً
عد بها في العباد إلا القليلاً
سماً بالله ناصرًا ووكيلاً
ممين ، مُرّاً ، وسائغاً معسولاً
وألفت التغيير والتبديلاً
سِين إن علقما وإن سلسبيلاً
نحن كالنجم مَطْلَعاً وأفولاً
نحن كالمزن مُمسكاً وهطولاً
نحن كالحظ منصفاً وخذولاً

قد تسرّي الحياة عنى فتبدي
فأراها موعظاً ودروساً
أمعن الناس في مخادعة النّفـ
عبدوا الجاه والنضار وعَيْنًا
الأديب الضعيف جاهاً ومالاً
والعتلّ القويّ جاهاً ومالاً
وإذا غادة تجلّت عليهم
وتلّوا سورة الهيام وغنّو
لا يريدون أجلاً من ثواب الله
فتنة عمّت المدينة والقر
وإذا ما انبريت للوعظ قالوا
أرأيت الذي يكذب بالبد

سخریات الوری قبیلاً قبیلاً
ویراها سواى خطباً جلیلاً
س وضلّوا بصائرًا وعقولا
من عیون المہا وخداً آسیلاً
لیس إلا مثرثراً مخبولاً
هو أهدى هدى وأقوم قیلاً
خشعوا أو تبتلّوا تبتیلاً
ها وعافوا القرآن والإنجیلاً
إنّ الإنسان كان عجولاً
یة لم تعف فتیة أو كهولاً
لست ربّاً ولا بُعثت رسولاً
ین ولا یرهب الحساب الثقیلاً



أكثرُ الناس يحكمون على النا
فلکم لقبوا البخیل کریمًا
ولکم أعطوا الملح فأغنوا
رب عذراء حرّة وصموها
وقطیع الیدین ظلماً ولص
وسجین صبّوا علیه نکالاً
جلّ من قلّد الفرنجة منا

س وهیهات أن یكونوا عدولاً
ولکم لقبوا الکریم بخیلاً
ولکم أهملوا العفیف الخجولاً
وبغیّ قد صورّوها بتولاً
أشبع الناس کفّه تقبیلاً
وسجین مدلل تدلیلاً
قد أساء التقلید وألتمشیلاً

فأخذنا الخبيث منهم ولم نقـ
يوم سنَّ الفرنج كذبةً إبريـ
نشروا الرجس مجملًا فنشرنا

بس من الطيبات إلا قليلا
ل غدا كل عُمُرنا إبريلا
ه كتابًا مفصلاً تفصيلا



علمتني الحياة أنَّ الهوى سيـ
ثم قالت : والخير في الكون باقـ
إن تر الشرَّ مستفيضًا فهوـ
ويطول الصراع بين النقيضـ
وتظلُّ الأيام تعرض لونيـ
فذليل بالأمس صار عزيزاً
ولقد ينهض العليلُ سليماً
رُبَّ جَوْعَانٍ يشتهي فسحة العمـ
وتظلُّ الأرحامُ تدفع قابيـ
ونشيد السلام يتلوه سفا
وحقوق الإنسان لوحة رسا
صورًا ما سرحتُ بالعين فيها

لُ فمن ذا الذي يردُّ السيولا
بل أرى الخير فيه أصلاً أصيلا
لا يحبُّ الله اليئوس الملولـ
ن ويطوي الزمانُ جيلاً فجيلا
ها على الناس بُكرةً وأصيلا
وعزيزٌ بالأمس صار ذليلا
ولقد يسقطُ السليمُ عليلا
ر وشبعانٌ يستحثُّ الرحيلا
لأ فيُردى ببغية هابيلا
حون سنُّوا الخراب والتقتيلا
م أجاد التزوير والتضليلا
وبفكري إلا خشيتُ الذهولا



قال صحبي : نراك تشكو جروحاً
قلت أمّا جروح نفسي فقد عوـ
غير أنَّ السكوتَ عن جرح قومي
لستُ أرضى لأمة أنبتتني
لستُ أرضى تحاسداً أو شقاقاً
أنا أبغى لها الكرامة والمجـ
علمتني الحياة أنِّي إن عشـ
علمتني الحياة أنِّي مهما

أين لحن الرضا رخيماً جميلا
دُتها بلَسَمَ الرضا لتزولا
ليس إلا التقاعس المرذولا
خُلُقًا شائهاً وَقَدْرًا ضئيلاً
لستُ أرضى تخاذلاً أو خمولا
دَ وسيفاً على العدا مسلولا
تُ لنفسي أعشُ حقيراً هزيلا
أتعلمُ فلا أزالُ جهولا(١)



(١) أُلقيت في المركز العام للشبان المسلمين ، وفرغ الشاعر من إنشادها ، ثم أجهش بالبكاء !!

بالحق أنزلناه وبالحق نزل

الإسلام أداة لتنظيم الأفكار على نحو معين ، كما تنتظم المقدمات لتنتج الصواب وتقرّر الحق .

ذاك فى المجال العقلى ، أما فى المجال النفسى والاجتماعى فهو أداة لتنظيم المشاعر والعواطف على نحو ينشئ الفضيلة ، ويدعم الأخوة ، أو على نحو ينفى الرذيلة ، ويمحق الأثرة .

فالإسلام - بما حوى من تعاليم - إنما يمهد للناس طريق الهداية التى تأخذ بنواصيهم وأفئدتهم إلى الحقيقة والكمال .

لهذا نزل الوحي ، وتتابع نذره وبشائه :

﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (١)

﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (٢)

وهذه الهداية فى مجالات النظر والتفكير ، وفى مجالات الأدب والمعاملة هى النتيجة المنشودة من وراء العبادات المقررة .

فليست الغاية من الطاعات مباشرة رسومها الظاهرة ، واعتياد أشكالها ، وتقمُّص صورها . كلا ، بل الغاية منها أن تزيد حدة العقل فى إدراك الحق ، وارتياح أقرب الطرق إليه ، وإن تمكن الإنسان من ضبط أهوائه ، وإحسان السير فى الحياة بعيداً عن الدنيا والمظالم .

وتأمل قول الله عز وجل :

﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ

اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ

إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ (٣)

(٢) آل عمران : ١٠٣ .

(١) النساء : ١٧٦ .

(٣) التوبة : ١٨ .

إن الإيمان بالله واليوم الآخر ، وفرائض الصلاة والزكاة أشعةٌ تتجمّع في حياة الإنسان لتُسدّد خطّوه وتلهمه رُشده ، وتجعله في الوجود موصولاً بالحق لا يتنكّر له ، ولا يزيغ عنه .

والذين لا يستفيدون من صلّتهم بالله هذا الضياء الكاشف ، وهذه الهداية الكريمة فلا خير في عباداتهم ، ولا أثر لصلّاتهم وزكاتهم .

وهذا سرّ التعبير الذي خُتمت الآية به : ﴿ ... عسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ﴾ .

كأن فعل هذه الصالحات لا يكفي ويشفى إلاّ بشرائط تتطلّب الكثير من اليقظة والجهد .

والرذائل التي نهى الله عنها إنما كرهها لعباده لأنها تكسف عقولهم ، وتسقط ضمائرهم ، وتشيع المظالم بينهم ، وتحوّل في أفكارهم ومشاعرهم إلى عطل وظلمة أو إلى فوضى وحيرة .

﴿ فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴾ (١)

فالإنسان الذي يؤثر طريق الرياء على طريق الإخلاص يلقى من العنت ما يلقاه رجل يدور حول نفسه ليصل من القاهرة إلى الإسكندرية .

سيظل يتحرّك في موضعه حتى ينقطع إعياءٌ دون أن يبلغ هدفه .

والإنسان الذي يؤثر الزنا على الإحصان يدركه من الشقاء ما يدرك الكلب الضال حين يتسكّع لاختطاف طعامه ، فيقع على جسمه من الضربات أكثر مما يدخل فمه من المضع المنهوبة .

وليست هذه المعاصي شؤماً على أصحابها فقط ، بل هي رجوم تملأ جنبات المجتمع بالمآسى والمخازى .

وانتشار الجرائم له من تدمير معنويات الأمم ما لانتشار الأوبئة الخبيثة في كيانها .

(١) طه ١٢٣ - ١٢٤ .

مقتضى الإيمان أن يعرف المرء لنفسه حدوداً يقف عندها ، ومعالم ينتهى إليها .
أما العيش من غير ضوابط ، والتمشى وراء النزوات المهتاجة دون تحفظ ولا تصوّن ،
فليس ذلك سلوك المسلم ، ولا ما يُرتقب منه .
إنّ الإيمان يُعطى أحكاماً صائبة ، وتقديرات جيّدة لكل ما يختلف علينا فى الحياة
من خسارة وربح ، وهزيمة ونصر ، ونجاح وفشل ، وصدّاقة وخصومة . .
وهو يهدى المؤمن إلى ما ينبغى فعله فى هذه النواحي جميعاً .
ومع أنّ تلك طبيعة الإيمان فإن الله عزّ وجلّ نصب للناس علامات أخرى يهتدون
بها بين الحين والحين ، حتى لا يشرّدوا عن الصراط المستقيم .
وتلك هى جُلّة الأوامر والنواهي والوصايا التى حفل بها كتابه ، وعلمنا إياها رسوله .
إنها تعاليم تدفع بالسلوك فى مجرىّ معيّن .
وتمنعه أن يسيح هنا وهناك ، كما تمنع الشيطانُ القائمة لجج الماء أن تسيل كيف تشاء . .
ولطبيعة الإنسان نزوات تطفو بها أحياناً وتطيش .
والخوف فى هذه النزعات أن يسترسل المرء معها ، فإنّ هذا الاسترسال يرمى به فى
مطارج لا يعود منها سالماً ، ولذلك قال « ابن المقفع » : (المؤمن بخير ما لم يعثر ،
فإذا عثر لجّ به العثار) .
هذه اللجاجة خور فى الإرادة ييسرّ الانهيار ، ويمنع التماسك ، ويجعل الرجل من
القلق ريشة فى مهب الرياح . .
ويرى « ديل كارنيجى » وجوب وضع حد أقصى للاضطراب الذى يعترى المرء
عقب هذه العثرات المقلقة .
إنّ الإنسان يخطئ حتماً ، فليست العصمة أملاً له ، ولا طبعاً فيه .
وهو يعانى نتيجة ما يتورّط فيه من أخطاء انفعالات مضطربة حمقاء .
وأفضل ما يصنع أن ينفذ يديه كليهما ممّا حدث ، وألاً يدع اللجاجة تنتقل به
من سىء إلى أسوأ ، ومن ظلال داكنة إلى ظلمات بعضها فوق بعض .
اجتهد ألا تسلك طريق ضلالة ، فإذا سلكته - تحت أىّ ضغط أو إغراء - فاجتهد
ألاً تُوغل فيه .
وعُدّ من حيث جئت فى أقرب فرصة ، وفى أسرع وقت . .

وقد تصاب بقارعة - كما تتخيل - أو فى نفس الأمر - فتهتز لوقعها . .
ليكن . . . بيد أن من الرشد استعادة الثبات والهدوء ، واختصار المتاعب التى
تنشأ حتماً من الإصرار على الضيق والسخط .

إن بعض الناس قد يصاب بشلل فى مَنَحِهِ إثر خسارة تصيبه ، أو غيظ يستفزّه ،
فهل ذلك دلالة إيمان أو إشارة إحسان ؟ . كلا ، ولا هو أية رجولة كبيرة . .

قال « ديل كارنيجى » (حدث فى أثناء الحرب الأهلية الأمريكية عندما كان
أصدقاء « لنكولن » يحملون حملات شعواء على أعدائهم أن قال « لنكولن »
-مُهدئاً- أتباعه : إن لديكم إحساساً بالغضب والثورة أكثر مما لدىّ ، وقد أكون خلقتُ
هكذا ، ولكنى لا أرى الغضب يجدى .

إنّ المرء لا ينبغي أن يضيّع نصف حياته فى المشاحنات ، ولو أن أحداً من أعدائى
انقطع عن مهاجمتى ما فكرت لحظة واحدة فى عدائه القديم لى) .

والمجال يضيّق هنا عن سرد النصوص الناهية عن الشحناء والغضب والأمره
بالسماحة والصفح ، ابتغاء مثوبة الله ، واحتفاظاً بصفاء الحياة .

ماذا يُجدى التمشى مع مشاعر الغيظ والتشقى ؟ إنّ خسائرننا أضعاف أرباحنا من
هذه الاحتياجات الطائشة .

ولو استجبنا لهذى الإيمان لوَفَّرَ علينا متاعب جمّة نستريح من عبئها يقيناً يوم
نستهدف مرضاة الله وإنفاذ وصاياه .

ولابأس أن نذكر هنا قصة «تولستوى» الفيلسوف الروسى الكبير وخصامه مع زوجته .

تقول دائرة المعارف البريطانية عن هذا الأديب الكبير : (إنه فى خلال العشرين سنة
الأخيرة من حياته كان أخلق رجال العالم بالتقدير والاحترام ، كان المعجبون به يحجّون
إلى بيته فى سيل لا ينتهى ليتملّوا بطلعته ، ويشنّفوا أذانهم بصوته ، بل ليتمتعوا
أصابعهم بلمس مُسوحه . كانت كل كلمة تخرج من فمه تُدوّن فى الصحائف ، كما لو
كانت نبوءة رسول . هكذا كانت حياته العامة . أمّا حياته الخاصة فإنّ تصرفاته وهو
شيخ فى السبعين كانت أشدّ حمقاً من تصرفات صبى فى السابعة !! .

تزوّج « تولستوى » من فتاة أحبها . وسعد الزوجان فى بداية أمرهما ، إلا أنّ
الزوجة كانت غيوراً بطبعها ، حتى إنها اعتادت التخصى فى زى الفلاحات والتجسّس
على زوجها . وتفاقت على مرّ الأيام غيبتها ، فإذا هى تغار على زوجها من بناتها !! ،
وأمسكت مرّة بنديقة وأحدثت بها ثقباً فى صورة ابنتها بدوافع الغيرة !! .

فما الذى فعله رجلها رداً على هذا ؟ أنشأ يكتب مذكرات يلوم فيها زوجته ويحملها
تبعه الشقاق الذى يغمر بيته .

إنه أراد أن تنصفه الأجيال القادمة وتصب اللوم كله على زوجته ، ولذلك عكف
على الكتابة ضدها .

فماذا ترى فعلت زوجته رداً على ذلك ؟ مزقت جانباً كبيراً من هذه المذكرات
وأحرقته ، ثم أخذت تكتب مذكرات أخرى ترد على زوجها ، وتكيل له الصاع
صاعين ، بل إنها كتبت فى ذلك قصة بعنوان : « غلطة مَنْ ؟ ! » .

قال « ديل كارنيجى » : (ما دوافع هذا كله ؟ ولماذا أحال هذان الزوجان منزلهما
إلى ما يشبه مستشفى المجانين ؟ إن هناك سبباً أصيلاً لهذا البلاء ؛ هو رغبة الزوجين
كليهما فى التأثير علينا نحن الأجيال التالية .

لقد أراد كل منهما أن ننصفه ، وأن نسخط على صاحبه فهل تظن أحداً منا يهتم :
أيهما كان المصيب ، وأيهما كان المخطئ ؟ كلا ، فأنا وأنت مشغولان بشئوننا
الخاصة ، ولسنا نملك أن نضيع دقيقة واحدة فى آل « تولستوى » الكرام .



فيا له من ثمن فادح دفعه هذان الزوجان . لقد قضيا خمسين عاماً فى جحيم
مقيم ، دون أن يُلهم أحدهما قولة « كفى » ، ودون أن يفطن أحدهما إلى وجوب تقدير
الأشياء بقيمتها الحقيقية فيقول لشريكه : دعنا نضع حداً لهذه الحال فى التو
واللحظة ، أننا نسمم حياتنا من أجل توافه لا قيمة لها) .

إن أولى هدايا الرياء إلى ذويه أنهم يُسلبون نعمة القرار ، وراحة البال !!
وأنهم يُضحون مصالحهم الخاصة ، وحاجاتهم الماسة فى سبيل استرضاء المتفرجين
عليهم ، والناظرين إليهم .

وربما أخذ ممثلو المسارح أجوراً كبيرة على الأدوار التى يقومون بها ، والروايات
الضحكة أو الباكية التى يخرجونها !! .

أما أولئك المراءون - وهم ممثلون فى غير مسرح - فإنهم يدفعون من أموالهم
وسعادتهم ما يظنونه ثمناً لاسترضاء الناس ونيل إعجابهم .

والناس قد يرمقون هذه الأعمال ، وقد يعلقون عليها بكلمات من أطراف شفافهم ،
ولكنهم فى صميم أنفسهم مشغولون بمطالبهم ومآربهم .

وهى مطالب ومأرب تستغرق انتباههم ، ولا تترك بقية يفرح بها أولئك المرءون المستغفلون .

ولو أقبل المرء على ربّه يستلهمه ويستعينه وحده لوفقه إلى ما يريح أعصابه ويزيح آلامه .
وما يضع حداً أقصى لكدر الإنسان أن يقارن بين ما لديه من خير ، وما يحسّه الألف من حرمان ، ولن تعدم - إذا فتحت عينيك بدقة - من تمتاز عليهم فى نفسك ومالك ، ومن يرزحون تحت ضوابط هى أثقل مما ابتليت به .

وفى هذا يقول رسول الله : «انظروا إلى من أسفل منكم ، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم ، فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم» .



ولا بدّ من لفت الأنظار إلى شىء . هو أن الإنسان قلماً يذكر نهاية لحياته ، فهو إن سرّاً أو حزن يبالغ فى استصحاب هذه المشاعر وتوسيع نطاقها ، غير مفكر البتة فى أنه سيفارقها يوماً إن لم تفارقه !! .

وقد كنتُ أميل إلى اعتبار الموت باطلاً لا يُكرث به .

وأميل إلى التعلق بحياة لا يخترمها فناء .

ولكن ما الحيلة إذا كان الموت حقاً ، وإذا كان وقعه الصارخ يفضّ الجامع ويفرّق الشمل وإن كرهنا ..

ألا ينبغى ذكر هذه الحقيقة ؟ إن ذكرها يضع حدوداً حاسمة لشتّى أحوال الحمق والغرور والاستطالة التى تُطيش بالألباب .

سئل رسول الله ﷺ : أى المؤمنين أكيس ؟ قال : « أكثرهم للموت ذكراً ، وأحسنهم لما بعده استعداداً »^(١) . وعن أنس رضى الله عنه أن رسول الله مرّ بمجلس وهم يضحكون فقال : « أكثروا من ذكر هاذم - قاطع - اللذات ، أحسبه قال - : فإنه ما ذكره أحد فى ضيق من العيش إلا وسّعه .. ولا فى سعة إلا ضيّقها عليه »^(٢) .

فليس ذكر الموت لإفساد الحياة إساءة العمل فيها ، بل للتخفيف من غلوائها وكفكفة الاغترار بها .

فإذا اعتدل التفكير فلن تتحوّل السعة إلى فوضى ، ولن يتحوّل الضيق إلى سجن .



(٢) البزار .

(١) الطبرانى .

لا تبك على فائت

يقولون : « لا جديد تحت الشمس » ، وهذه كلمة تصدق على سير الحياة الإنسانية فى تاريخها الطويل ، من ناحية الطبع والرغبات ، والاختلاط والمنازعات ، والجُرر والعدل ، والسُّلم والحرب ، وقيام الأمم وانهارها ، وازدهار الحضارات وانقراضها . ولهذا الشبه الدائم فى مواكب العمران المتواصل على ظهر الأرض ، والخصائص المتوارثة بين الأخلاف والأسلاف أمر الله عباده أن يستعرضوا أحداث الماضى لينتفعوا بما فيها . فإن ما يعنى الأولين يعنى الآخرين ، وما نواجهه - دَهْشِين لجدته - قد سبق به عهد ، وصدرت فيه أحكام .

وخيرٌ لنا أن نستصحب ما كان ، ونحن نعالج ما يكون . والله عزَّ وجل يقول :

﴿ فَأَعْيُرُوا يَأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ (١)

والبصر الذى ينفذ فى أعماق الماضى يستقرئ أنباءه ، ويتعرَّف مواعظه ، ويتزوَّد من تجارب السابقين بذخر يجنبه الزلل ، هو البصر المؤمن الحصيف .

وفى هذا يقول الحقُّ جلَّ اسمه : ﴿ أَفَلَمْ نَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُنْ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا

أَوْءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ

الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (٢)

وفى القرآن الكريم قصص كثيرة خلَّد الله فيه أحوال القرون الغابرة ، ومصاير الأتقياء والفجار ، وصراع الخير والشرِّ ، ووضع ذلك كلِّه بين أيدينا لتتوسَّم ونتدبر :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ

لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ

يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣)

(٣) يوسف : ١١١ .

(٢) الحج : ٤٦ .

(١) الحشر : ٢ .

فى هذه الحدود المبينة يجب أن ندرس الماضى .

وابتغاء العظة المجردة وحدها يصح أن نلتفت إلى الوراء .

أما العودة إلى الأمس القريب أو البعيد لنجدد حزنًا ، أو ننكأ جرحًا ، أو ندور حول مأساة حزت فى نفوسنا لنقول : « ليت ، ولو » فإن هذا ما يكرهه الإسلام وينفّر من التردى فيه ، بل إن هذا كان ديدن الحيارى والمتردد من المنافقين ومرضى القلوب :

﴿ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ

لَوْ كَان لَنَا مِنْ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قَتَلْنَا هَهُنَا قُل لَّو كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ

الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ﴾ (١)

﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا

لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَتَلُوا قُل فَاذْرُوهُ وَعَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢)

وهذه التأوهات المنكسرة ، والتحسرات المفجوعة سيطرت على ضعفاء الإيمان بعد غزوة (أحد) ، فإن الخسائر التى أصابت أهل المدينة بعد هجوم المشركين عليها خلّفت آثارًا غائرة ، وفتحت أمام الحاقدين على الإسلام ثغرات للتشفى واللمز .

لكن الله عزّ وجل أنزل آيات مفصّلة فى مداواة هذه الجراح ولمّ شمل المسلمين عقب النكبة التى أصابتهم ، فكان من تأديبه لهم أن علّق عيونهم بالمستقبل ، وصرف أذهانهم عن الماضى ، وزجرهم عن الوقوف بأطلال الأمس ليكون ويولولون .

لا ، ليست هذه شيمة الرجولة ، ولا منطق الإيمان ، يجب أن نتعرّف سرّ الخطأ لتتقى فى المستقبل ، ولن ننظر فيما وقع إلا بمقدار ما نستخلص العبرة منه ، وذلك ما تكفّل به القرآن الكريم ، فقد أشار إلى علّة الهزيمة فى إيجاز :

﴿ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرْكَبْتُمْ مَا تُحِبُّونَ ﴾ (٣)

﴿ إِنْ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ

مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ (٤)

(٢) آل عمران : ١٦٨ .

(١) آل عمران : ١٥٤ .

(٤) آل عمران : ١٥٥ .

(٣) آل عمران : ١٥٢ .

ثم واساهم بما يهون وقع الألم عليهم ، فإن الألم إذا قيّد النفوس بسلاسله الغلاظ
ربطها في زمن يتحرك ، فلم تحسن شيئاً ، ولم تكسب خيراً .
ما قيمة لطم الحدود ، وشق الجيوب على حظّ فات أو غُرم ناب ؟ .
ما قيمة أن ينجذب المرء بأفكاره ومشاعره إلى حدّث طواه الزمن ليزيد ألمه حُرقةً
وقلبه لذعاً؟! .

لو أن أيدينا يمكنها أن تمتد إلى الماضي لتمسك حوادثه المُدبرة ، فتغيّر منها ما
تكره ، وتحوّرها على ما تحب ؛ لكانت العودة إلى الماضي واجبة ، ولهرعنا جميعاً إليه ،
نمحو ما ندمنا على فعله ، ونضاعف ما قلّت أنصبتنا منه .
أما وذلك مستحيل فخيرٌ لنا أن نكرّس الجهود لما نستأنف من أيام وليالٍ ، ففيها
وحدها العوّض .

إنّ المرء ليس متّهماً في حرصه على مصلحته ، فإذا ضاعت هذه المصلحة لسبب
ما ، خصوصاً تلك التي تتصل بالأجال والأرزاق ، فلنجعل من إيماننا بالله وقدره ما
يحجزنا عن التعلق بالأوهام والحماقات .

وهذا ما نبّه إليه القرآن الكريم بعد (أحد) ؛ قال للباكين على القتلى ، النادمين
على الخروج للميدان : لو بقيتم في بيوتكم ما طالت لكم حياة ولا امتدّ أجل :

﴿ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قَتَلْنَا هَهُنَا قُلُوبًا لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ
الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ﴾^(١)

فعلام هذا النعيب المسحوق؟! إن الطائفة تسقط من الجوّ بما فيها ومنّ فيها ، فإذا
القَدَرُ الرائع يتكشف عن جثث محترقة ، وعن أطفال ورجال لم يمسنهم سوء !!
فلماذا لا نعترف بالقَدَرِ الأعلى فيما يقع ؟ . ونرد عليه ما يغلبنا على أمورنا ليكون من
ذلك سلوى ورضاً ! .

إن « ديل كارنيجي » يلجأ إلى العقل ليصل بنا إلى هذه الغاية فيقول :
(من الممكن أن تحاول تعديل النتائج التي ترتبت على أمر حدث منذ ١٨٠ ثانية ،
أمّا أن تحاول تغيير الزمن فهذا هو الذي لا يعقل . وليس ثمة إلاّ طريقة واحدة يمكن

(١) آل عمران : ١٥٤ .

بوساطتها أن تصبح الأحداث الماضية إنشائية مُجدية . تلك هي تحليل الأخطاء التي وقعت في الماضي والاستفادة منها ثم نسيانها نسياناً تاماً .

أنا أوّمن بهذا ، ولكن هل تُراني أملك الشجاعة دائماً لأفعل ما أوّمن به !؟ ثم قال : حدّثني « سوندرز » أن مستر « براندوين » مدرّس الصحة بكلية « جورج واشنطنجتون » علّمه درساً لن ينساه أبداً ، ثم قصّ عليّ قصة هذا الدرس فقال : لم أكن بعدُ قد بلغت العشرين من عمري ، ولكنني كنت شديد القلق حتى في تلك الفترة المبكرة من حياتي ، فقد اعتدتُ أن أجتزّ أخطائي ، وأهتم لها همماً بالغاً . وكنتُ إذا فرغتُ من أداء امتحان وقدمتُ أوراق الإجابة ، أعودُ إلى فراشي فأستلقي عليه ، وأذهب أقرض أظافري وأنا في أشد حالات القلق خشية الرسوب ، لقد كنتُ أعيش في الماضي وفيما صنعت فيه ، وأودّ لو أنني صنعت غير ما صنعت ، وأفكر فيما قلته من زمن مضى ، وأودّ لو أنني قلتُ غير ما قلت .

ثم إنني في ذات صباح ضمّني الفصل وزملائي الطلبة ، وبعد قليل دلف المدرّس (مستر براندوين) ومعه زجاجة مملوءة باللبن وضعها أمامه على المكتب . وتعلقت أبصارنا بهذه الزجاجة ، وانطلقت خواطرنا تتساءل : ما صلة اللبن بدروس الصحة ؟ وفجأة نهض المدرّس ضارباً زجاجة اللبن بظهر يده فإذا هي تقع على الأرض ويُرّاق ما فيها ، وهنا صاح مستر (براندوين) : لا يبكي أحدكم على اللبن المراق . ثم نادانا الأستاذ واحداً واحداً لتأمل الحطام المتناثر والسائل المسكوب على الأرض ، ثم جعل يقول لكلّ منا : انظر جيداً إنني أريد أن تذكر هذا الدرس مدى حياتك ، لقد ذهب اللبن واستوعبته البالوعة ، فمهما تشدّ شعرك ، وتسمح للهمّ والنكد أن يمسكا بخناقك فلن تستعيد منه قطرة واحدة . لقد كان يمكن بشيء من الحيلة والحذر أن نتلافى هذه الخسارة . ولكن فات الوقت ، وكل ما نستطيعه أن نمحو أثرها وننساها ثم نعود إلى العمل بهمة ونشاط) .



ذلك حق ، وإليه يشير الحديث الشريف : « استعن بالله . ولا تعجز ، وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أني فعلتُ كذا كان كذا وكذا . ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان » .

وبهذا نُعفى على الماضي ، ونستأنف المسير في نشاط ورجاء .

حياتك من صنع أفكارك

سعادة الإنسان أو شقاوته أو قلقه أو سكينته تنبع من نفسه وحدها .
إنه هو الذى يُعطى الحياة لونها البهيج ، أو المقبض ، كما يتلون السائل بلون الإناء الذى يحتويه : « فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط » (١) .
عاد النبي ﷺ أعرابياً مريضاً يتلوى من شدة الحمى ، فقال له مواسياً ومشجعاً : « طهور » ، فقال الأعرابى : بل هى حمى تفور ، على شيخ كبير ، لتورده القبور . قال : « فهى إذن » (٢) .
يعنى أن الأمر يخضع للاعتبار الشخصى ، فإن شئت جعلتها تطهيراً ورضيت ، وإن شئت جعلتها هلاكاً وسخطت .

إنَّ العمل الواحد بما يصاحبه من حال نفسى يتغير تقديره تغيراً كبيراً .
وانظر إلى هاتين الآيتين وما تبرزانه من صفات الناس :

﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَابِّ عَلَيْهِمْ ذَايِرَةٌ السُّوءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبًا عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَاتِ الرَّسُولِ أَلَّا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ ﴾ (٣)

هؤلاء وأولئك يدفعون المال المطلوب .
هؤلاء يتخذونه غرامة مؤذية مكروهة ، ويتمنون العنت لقاضييه .
وأولئك يتخذونه زكاة محبوبة تطيب النفس بأدائها ، وتطلب الدعاء الصالح بعد إيتائها .
وشئون الحياة كلها لا تعدو هذا النطاق .

(٣) التوبة : ٩٨ - ٩٩ .

(٢) البخارى .

(١) الترمذى .

قيمة العمل ، بل قيمة صاحب العمل ترتبط ارتباطاً وثيقاً بحقيقة الأفكار التي تدور في الذهن ، والمشاعر التي تعتمل في النفس ، قال « ديل كارنيجي » : (إن أفكارنا هي التي تصنعنا ، واتجاهنا الذهني هو العامل الأول في تقرير مصيرنا ، ولذلك يتساءل « إيمسون » : نبئني ما يدور في ذهن الرجل أنبئك أى رجل هو . نعم ، فكيف يكون الرجل شيئاً آخر غير ما يدل عليه تفكيره ؟ واعتقادي الجازم أن المشكلة التي تواجهنا هي : كيف نختار الأفكار الصائبة السديدة ؟ فإذا انحلت هذه المشكلة انحلت بعدها سائر مشكلاتنا واحدة إثر أخرى . قال الإمبراطور الروماني «ماركوس أورليوس» : إن حياتنا من صنع أفكارنا .

فإذا نحن ساورتنا أفكار سعيدة كنا سعداء ، وإذا تملكنا أفكار شقية غدونا أشقياء ، وإذا خامرتنا أفكار مزعجة تحولنا خائفين جناء ، وإذا تغلبت علينا هواجس السقم والمرض فالأغلب أن نبني مرضى سقماء ، وهكذا) .



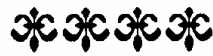
إن أحداً لا يستطيع إنكار ما للروح المعنوي من أثر باهر لدى الأفراد والجماعات . فالجيش التي يحسن بلاؤها وتعظم بسالتها إنما تستمد طول مقاومتها من رسوخ العقيدة وقوة الصبر ، أكثر مما تستمد من وفرة السلاح والعتاد . فذخيرة الخلق المتين والمسلك العالی أجدى على أصحابها وأكسب للنصر من أى شىء آخر .

والرجل الذي تربو ثقته بنفسه لا يشل إقدامه على الحياة نقص في بدنه ، أو عنت في ظروفه ، بل قد يكون ذلك مثار نشاطه ، وشدة شكيمته ، كما قال الشاعر :

إن لا يكن عظمى طويلاً فإننى له بالخصال الصالحات وصُول
إذا كنت في القوم الطوال علوتهم بعارفة حتى يقال : طويل

والحق أن مركب النقص قد يكون خيراً وبركة إذا حفز إلى التكمّل وحداً إلى المجد . وهو إنما يذم ويُسْتَكْرَه إذا التوى بالإنسان وجعله يجنح إلى الرياء والتظاهر الكاذب ، ومواراة عيوبه بالادّعاء والخديعة .

إنَّ الأحوال النفسية الحيَّة تجعل القليل كثيراً ، والواحد أُمَّة .
وإلى هذه الأحوال - كماً وكيفاً - يرتدُّ مستقبل الإنسان ، وتأخذ حياته مجراها .
والنفس وحدها هي مصدر السلوك والتوجيه حسب ما يغمرها من أفكار ،
ويصبغها من عواطف .
إنَّ الإنسان عندما يرتفع عن سطح الأرض تتغير الأشكال والأحجام في عينه ،
وتكون نظرتة إلى ما دونه أوسع مدى وأرحب أفقاً .
وهو هو لم يتغير .
كذلك ارتفاع الإنسان في مدارج الارتقاء الثقافى والكمال الخلقى .
إنه يغيّر كثيراً من أفكاره وأحاسيسه .
ويبدل أحكامه على كثير من الأشخاص والأشياء .
والمرء فى طور الصبا غيره فى طور الرجولة ، وهو فى طَور الشباب غيره فى
طَور الكهولة .
ونحن نستطيع أن نصنع من أنفسنا مثلاً رائعة إذا أردنا .
وسبيلنا إلى ذلك تجديد أفكارنا ومشاعرنا ، كما تتجدد الرقعة من الصحراء إذا
انضاف إليها مقدار ضخم من المخصّبات والمياه .
إننا نتحوّل أشخاصاً آخرين كما تتحوّل هذه الصحراء القاحلة روضة غناء .



وقد حكى لنا « ديل كارنيجى » قصة شاب نهكته العلة ، فرحل عن وطنه يطلب
الصحة فى السياحة وارتياح الأقطار البعيدة ، وكان أبوه يعلم طبيعة مرضه ، وأن
سقامه جاء من توعُّك مزاجه وغلبة أوهامه ، فكتب إليه فى غربته هذه الرسالة :
(ولدى ، إنك الآن على بعد ألف وخمسمائة ميل من بيتك ، ومع ذلك لست تحسّ
فارقاً بين الحالين هنا وهناك ، أليس كذلك ؟ بلى ، لأنك أخذت عبر هذه المسافة
الشاسعة الشىء الوحيد الذى هو مصدر كل ما تعانیه ، ذلك هو نفسك . لا أفة البتّة
بجسمك أو عقلك ، ولا شىء من التجارب التى واجهتها قد تُردى بك إلى هذه
الهاوية السحيقة من الشقاء ، وإنما الذى تردى بك هو العوج الذهنى الذى واجهت به

تجاربك ، وكما يفكر المرء يكون ، فمتى أدركتَ ذلك يا بنى ، فعد إلى بيتك وأهلك ، لأنك يومئذ تكون قد شفيت !!) .

قال الشاب : (هاجنى هذا الخطاب ، وبلغ بى الغضب حداً قررتُ معه ألا أعود إلى بيتى وأهلى ، قال : وفى تلك الليلة وبينما كنتُ أذرع إحدى الشوارع ، وجدتُ كنيسة فى طريقى تُقام فيها الصلاة ، ولما لم تكن لى وجهة معينة ، فقد دلفتُ إليها لأستمع إلى الموعظة الدينية التى تُلقى ، كان عنوان العظة : « هذا الذى يقهر نفسه ، أعظم من ذاك الذى يفتح مدينة » .

وكأنما كان جلوسى فى معبد من معابد الله ، وإنصاتى إلى الأفكار التى تضمَّنْها خطاب أبى تقال بصيغة أخرى ممحاةً مسحت الاضطراب الذى يطغى على عقلى ، ووسعنى فى تلك اللحظة أن أفكر تفكيراً متَّزناً فى حياتى ، وهالنى إذ ذاك أن أرى نفسى على حقيقتها ، نعم ؟ لقد رأيتنى أريد أن أُغيِّر الدنيا وما عليه ، فى حين أن الشىء الوحيد الذى كان فى أشد الحاجة إلى التغيير هو تفكيرى واتجاه ذهنى . هو نفسى) .



وما كتبه « كارنيجى » كتبنا مثله فى مؤلَّفنا « خلق المسلم » ونَوَّهنا فيه بهذه الحقيقة ، قلنا : (الإسلام - كسائر رسالات السماء - يعتمد فى إصلاحه العام على تهذيب النفس الإنسانية قبل كل شىء ، فهو يصرف جهوداً ضخمة للتغلغل فى أعماقها ، وغرس تعاليمه فى جوهرها حتى يستحيل جزءاً منها .

وما خُلِّدت رسالات النبيين وكوَّنت حولها جماهير المؤمنين إلاَّ لأن « النفس الإنسانية » كانت موضوع عملها ، ومحور نشاطها ، فلم تكن تعاليمهم قشوراً ملصقة فتسقط فى مضطرب الحياة المتحركة ، ولا ألواناً مفتعلة تَبْهَتُ على مرِّ الأيام . . . لقد خلطوا مبادئهم بطوايا النفس ، فأصبحت هذه المبادئ قوة تهيمن على وساوس الطبيعة البشرية ، وتتحكَّم فى اتجاهاتها .

وربما تحدَّثت رسالات السماء عن المجتمع وأوضاعه ، والحكم وأنواعه ، وقدِّمت أدوية لما يعرو هذه النواحي من علل .

ومع ذلك فالأديان لن تخرج عن طبيعتها في اعتبار النفس الصالحة هي البرنامج المفصل لكل إصلاح ، والخلق القوى هو الضمان الخالد لكل حضارة . وليس في هذا تهوينٌ ولا غرضٌ من عمل الساعين لبناء المجتمع والدولة .

بل هو تنويه بقيمة الإصلاح النفسى فى صيانة الحياة وإسعاد الأحياء .

فالنفس المختلة تثير الفوضى فى أحكم النظم ، وتستطيع النفاذ منه إلى أغراضها الدنيئة . والنفس الكريمة ترفع الفتوق فى الأحوال المختلة ، ويشرق نبلها من داخلها ، فتحسن التصرف والمسير وسط الأنواء والأعاصير .

إنَّ القاضى النزيه يكملُّ بعدله نقص القانون الذى يحكم به ، أما القاضى الجائر فهو يستطيع الميل بالنصوص المستقيمة . وكذلك نفس الإنسان حين تواجه ما فى الدنيا من تيارات وأفكار ، ورغبات ومصالح .

ومن هنا كان الإصلاح النفسى الدعامة الأولى لتغلب الخير فى هذه الحياة . فإذا لم تصلح النفس أظلمت الآفاق ، وسادت الفتن حاضر الناس ومستقبلهم ، ولذلك يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ ۗ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَّالٍ ۗ ﴾ (١)

ويَقُول معللاً هلاك الأمم الفاسدة . ﴿ كَذَّبَ آءَالٌ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ

كَفَرُوا بِآيَاتِنَا لِلَّهِ فَآخِذْهُمْ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ

﴿ ٥٢ ﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا

مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ ﴾ (٢)



ويريد الله عز وجل أن يبين لنا الصلة الوثيقة بين صفاء النفس و صفاء العيش وبين جمال الخلق وجمال الحياة ، فأكد لنا أن بركته الشاملة تنزل أماناً على المؤمنين ، وبراً وفضلاً على الأتقياء والمحسنين ، فقال :

(٢) الأنفال : ٥٢ - ٥٣ .

(١) الرعد : ١١

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ (١)

وذكر أنه أنزل الهزيمة والحزى بقوم من الغزاة :

﴿ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بِطَرَأٍ وَإِنَاءٍ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (٢)

ثم بعد أن وقع عليهم العقاب فتح لهم منافذ الرجاء إلى مستقبل أكرم ، ولكن كرامته رهن بتغير قلوبهم ، وانتقالها عن خلال البطر والاستعلاء إلى خلال التواضع

والمراحة والعدالة ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ

إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ

وَاللَّهُ عَزِيزٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٣)

والتربية الإسلامية الأولى أوغلت إلى حد هائل في دراسة النفوس وأحوالها ، والقلوب وأطوارها ، مستهدفة في هذه الدراسة جعل السعادة العظمى تنبع من داخل الإنسان لا من خارجه ، ومُعَرِّية المرء أن يرتقب في آفاق نفسه وحدها كواكب اليُمن والإقبال والرضوان . فإذا طلعت - بعد طول الرياضة والتجرّد وصدق اليُمن والإخلاص - فهيئات أن يدرك شعاعها أفول .

وعندما يصل السالكون إلى هذا الشأو ، يقولون : نحن في لذة لو عرفها الملوك لقاتلونا عليها بالسيوف !! .

بيد أن هذه الرياضات النفسية ، وما يُنشَدُ منها ، أصابها من التطرّف والفوضى ما أزرى بنتائجها .

إذ أن متصوِّفة المسلمين الأول انحصروا في نطاق تصوّراتهم ، وغالوا بالنتائج الشخصية التي أحرزوها ، وحاولوا أن ينظروا من خلالها إلى حقائق الكون والحياة الطبيعية فضلوا وأضلوا ..

والفرق بين التصوِّف الإسلامي والتصوِّف الأمريكي يظهر من ذكر هذه الحكاية التي أثبتتها « ديل كارنيجي » للسيدة « ماري بيكر إيدي » مؤسسة ما سمّاه « العلم المسيحي » .

(٢) الأنفال : ٤٧ .

(١) الأعراف : ٩٦ .

(٣) الأنفال : ٧٠ .

هذه السيدة لم تكن تعلم من شئون الحياة إلا الفقر والجوع والمرض ، فقد مات زوجها بعد وقت قصير من قرانهما ، وهجرها زوجها الثانى هارباً مع امرأة أخرى ، ثم وجد بعدُ ميّتاً فى منزل حقير .

وكان لها ولد واحد .. لكنها ألفت نفسها مدفوعة بالفاقة والمرض إلى التخلّى عنه حين بلغ الرابعة من عمره .

ثم فقدت كل أثر له بعد ذلك ، فلم تره مدة واحد وثلاثين عاماً .
ولما كانت السيدة « إيدى » علية على الدوام فقد انسقت إلى الاهتمام بفكرة «العلاج بقوة العقل» .

وقد وقعت نقطة التحول فى حياتها وهى ببلدة « لين » ، فبينما كانت تجوب طرقات البلدة ذات يوم إذ زلّت قدمها فسقطت على الإفريز المكسو بالجليد ، ثم ذهبت فى إغماء طويل ، وأصيبت من جراء سقطتها هذه إصابة بالغة فى عمودها الفقرى ، وتوقع لها الأطباء إمّا الموت العاجل ، وإمّا الشلل التام طول حياتها ..

وبينما المرأة راقدة فى فراش المرض فتحت الكتاب المقدّس ، وألهمتها العناية الإلهية - كما عبّرت هى - أن تقرأ هذه الكلمات من إنجيل متى : (وإذا مفلوج يقدمونه إليه - تعنى عيسى عليه السلام - مطروحاً على فراش ، حينئذ قال للمفلوج : قُمْ احمل فراشك واذهب إلى بيتك ، فنهض وغادر المكان) .

قالت « مارى بيكر » : إنّ هذه الكلمات أمدّتها بقوة وإيمان وفورة داخلية ، حتى أنها نهضت من الفراش وتمشّت فى الغرفة !! ومهدّت هذه التجربة الطريق للسيدة المشلولة كى تشفى نفسها وتسوق العافية للآخرين .

قال « ديل كارنيجى » (تلك هى التجربة التى مكنت « مارى بيكر إيدى » من أن تصبح مبشرة بدين جديد ، لعلّه الدين الوحيد الذى بشرت به امرأة !!) .

ونحن نميل إلى تصديق هذه الأقصوصة الطريفة ، بل نميل إلى تصديق الخوارق التى تحكيها الصحف عن فقراء الهنود ، فإنّ القوى النفسية الطامحة تصنع العجائب .
ولمن شاء أن يهزّ كتفيه استخفافاً ، فليس يتعلّق بتصديق هذه الروايات إيمان ولا كفران .

غاية ما نلفتُ النظر إليه أنّ هذه الحوادث يجب أن تُحصر فى النطاق الفردى المحض ، فلا يحاول أحد أن يجعل منها قانوناً مادياً عاماً .

والأمريكان الذين وقعت بينهم تلك القصة لم يتجاوزوا تلك الحدود ، ولم يحاولوا نقلها إلى معامل الذرة أو ساحات المصانع وميادين الإنتاج .

أما الذى حدث فى بلادنا منذ قرون فعلى العكس من ذلك تماماً .
إذ تحوّلت هذه الخوارق النفسية إلى وباء اجتاح القرى والمدن .

فما يكاد يمر يوم حتى تضيف « الروايات » خارقاً لرجل ماجن أو ماجد ، وكرامة لولى صالح أو داهية خبيث .

واتسعت دائرة الأساطير ، فإذا هى تنتقل إلى ميادين التجارة والصناعة والعلم والبحث .

بل لقد انتقلت إلى ميادين الحرب والسياسة ، فعندما حارب الخديوى إسماعيل الحبشة وأحسّ ما لاقته حملاته هناك من خيبة ، أمر علماء الأزهر أن يجتمعوا فى صحنه ليقروا : « صحيح البخارى » !! .

كأن تلاوة السنّة كلّها أو القرآن كلّهُ تردُّ الهزائم عن الفرق المدبرة لسوء خطتها أو ضعف عدتها !! .

إن امرأة تتلو سطوراً من إنجيل « متى » فتشفى - كما يحكى الأمريكان - لا يجوز أن يتحوّل أمرها إلى لفظ حول سنن الله فى كونه ، كما حدث لأمثالها فى بلادنا ، إذ تحوّلت هذه الخوارق النفسية الخاصة إلى هجوم شامل على حقائق الكون والحياة !! .

ذلك أن الأنظار والأحكام يمكن أن تتفاوتت تفاوتاً واسعاً فى المجالات الاعتبارية البحتة ، ويمكن أن تزيد قواك أو تنقص تبعاً لما فى نفسك من همّة ونشاط وإقبال .

أما قوانين المادة العتيدة فهى لا تتمع وفق الأهواء والميول .
وفى هذه الحدود نفهم قول « جسم ألن » .

(دَعُ إنساناً يغير اتجاه أفكاره ، وسوف تمتلكه الدهشة لسرعة التحوّل الذى يحدثه هذا التغير فى جوانب حياته المتعدّدة . إنَّ القدرة الإلهية التى تكيف مصايرنا ، مودعة فى أنفسنا ، بل هى أنفسنا ذاتها !! .

وكل ما يصنعه المرء هو نتيجة مباشرة لما يدور فى فكره ، فكما أن المرء ينهض على قدميه وينشط وينتج بدافع من أفكاره ، كذلك يمرض ويشقى بدافع من أفكاره أيضاً) .

من أمد بعيد وأنا أكتب للإسلام وأخطب وأجوب
أرجاء الدنيا، والجماعة التي عشتُ فيها حقة من الدهر
تعلم ذلك عنى . ولم تكن خطابتي بسطة لسان يهدر
بالقول ، ولم تكن كتابتي سطوبة قلم يصول ويجول ،
بد كان ذلك كله ذوب عاطفة تضطرم بالإخلاص ،
وفكر يستكشف صميم الحق ويبادر إلى إعلانه .

محمد الغزالي

الثلث الباهظ للقصاص

إحساس المرء بعظمة نفسه ، ورسوخ قدمه ، وحصانة عرضه ضدَّ المفتريات وإحساسه بتفاهة خصومه أو عجزهم عن النيل منه ، أو قدرته على البطش بهم ، كل ذلك يجعله بارد الأعصاب إذا أُهين ، بطيء الغضب إذا أسىء إليه .

والغالب أن الإنسان يتغير ، ثم يفتاظ ، ثم تنفجر ثورته إذا اقتحمت نفسه ، كما يقتحم العدو بلدًا سقط في قبضته وأعلن الاستسلام .

أما إذا أيقن أن عدوه يحاول المستحيل باستفزازه ، وأنه مهما بذل فلن يجرحه ، فإنَّ هذه الطمأنينة تجعله يتلقى الضربات بهدوء ، أو بابتسام ، أو بسخرية .

ودعمًا لهذه الحقيقة نسوق شاهدين : أحدهما ذكره « ديل كارنيجي » ، والآخر ذكرته في كتابي « خلق المسلم » وكلا الشاهدين يصدّق الآخر ويزكّيه . قال « ديل كارنيجي » : (نصبنا مُخيّمًا ذات ليلة تجاه حرش متكاثف الأشجار ، وفجأة برز لنا وحش الغاب المخيف : الدب الأسود . وتسَلَّل الدب إلى ظلال الضوء المنبعث من معسكرنا ، وراح يلتهم بقايا طعام يبدو أنّ خدم أحد الفنادق المقامة في أطراف الغابة ألقاها هناك . . . وفي ذلك الوقت كان « الماجور مانترييل » - أحد رواد الغابات المغامرين - يمتطي صهوة جواده ، ويقصُّ علينا أعجب القصص عن الدبّية ، فكان بما قاله : إنّ الدب الأسود يسعه أن يقهر أي حيوان آخر يعيش في العالم الغربي باستثناء الثور على وجه الاحتمال .

غير أنّي لاحظتُ في تلك الليلة أن حيوانًا ضئيلًا ضعيفًا استطاع أن يخرج من مكنه في الغابة وأن يواجه الدبَّ غير هيّاب . ولا وَجِل .

بل أن يشاركه الطعام أيضًا ، ذلك هو « النمس » .

ولا ريب أن الدبَّ يعلم أن ضربة واحدة من مخلبه القوي تمحو « النمس » من الوجود ، فلماذا لم يفعل هذا . لأنه تعلّم بالتجربة أن مغاضبة مثل هذا

الحيوان الضئيل عداوة لن تعود بالضرر إلاً عليه هو ، فأكرم له وأليق بكبريائه أن يغض الطرف عنه .

ولقد تعلمتُ هذا أنا أيضاً ، فطالما ضيّقت الخناق على آدميين من طراز هذا «النمس» ، فعلمتني التجربة المرة أن اجتلاب عداوة هؤلاء لا تُجدي فتيلاً .

ذاك ما كتبه « ديل كارنيجي » في كتابه : « دَعِ القلق » . وقد وافقته في هذا التفكير فيما كتبه - قبلاً - بخُلُق المسلم قلت :

(ومع أن للطباع الأصيلة في النفس دخلاً كبيراً في أنصبه الناس من الحدة والهدوء ، والعجلة والأناة ، والكدر والنقاء ؛ إلا أن هناك ارتباطاً مؤكداً بين ثقة المرء بنفسه وبين أناته مع الآخرين وتجاوزه عن خطئهم .

فالرجل العظيم حقاً كلما حلَّق في آفاق الكمال اتَّسع صدره ، أو امتد حلمه ، وعذَّر الناس من أنفسهم ، والتمس المبررات لأغلاطهم . فإذا عداً عليه غرُّ يريد تجريحه ، نظر إليه من قمته كما ينظر الفيلسوف إلى صبيان يعبثون في الطريق وقد يرمونه بالأحجار .

وقد رأينا الغضب يشتط بأصحابه إلى حد الجنون عندما تُقْتَحَمُ عليهم نفوسهم . ويرون أنهم حُقِّروا تحقيراً لا يعالجه إلا سفك الدم .

أفلو كان الشخص يعيش وراء أسوار عالية من فضائله يحسُّ بوخز الألم على هذا النحو الشديد؟ كلا . إن الإهانات تسقط على قاذفها قبل أن تصل إلى مرماها البعيد .

وهذا المعنى يفسِّر لنا حلم « هود » وهو يستمع إلى إجابة قومه بعد ما دعاهم إلى

توحيد الله قالوا : ﴿ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [٦٦] قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ بِي

سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي

وَإِنَّا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ (١)

إنَّ شتائم هؤلاء الجهَّال لم يطش لها حلم « هود » لأن الشقَّة بعيدة بين رجل اصطفاه الله رسولاً ، فهو في الذُّؤابة من الخير والبر ، وبين قوم سَفِهوا أنفسهم ،

(١) الأعراف : ٦٦ - ٦٨ .

وتهاوؤوا على عبادة الأحجار يحسبونها - لغبائهم - تضرُّ وتنفع !! كيف يضيق المعلم الكبير بهرف هذه القطعان؟!) .



وإليك نماذج من الرجولات التي لا تهزها إساءة ، ولا تستفزها جهالة ، لأن لغو السفهاء يتلاشى في رحابتها كما تتلاشى الأحجار في أغوار البحر المحيط .

ما يضير البحر أمسى زاحراً إن رمى فيه غلام بحجر؟!!

يُروى أن رجلاً سبَّ الأحنف بن قيس - وهو يماشيه في الطريق - فلما قرب من المنزل وقف الأحنف وقال : يا هذا ، إن كان بقي معك شيء فقله ههنا ، فإنني أخاف إن سمعت فتیان الحى أن يؤذوك .

وقال رجل لأبى ذر : أنت الذى نفاك معاوية من الشام ؟ . لو كان فيك خير ما نفاك !! فقال : يا ابن أخى ، إن ورائى عقبة كؤوداً ، إن نجوت منها لم يضرني ما قلت ، وإن لم أنج منها فأنا شرُّ مما قلت !! .

وقال رجل لأبى بكر : والله لأسبِّنك سبباً يدخل القبر معك !! قال : معك يدخل لا معى !! .

وقال رجل لعمرو بن العاص : والله لأتفرغنَّ لك . قال : هناك وقعت في الشغل !! قال : كأنك تهددنى ؟ والله لئن قلت لى كلمة لأقولن لك عشرًا !! قال عمرو : وأنت والله لئن قلت لى عشرًا لم أقل لك واحدة .

وشتم رجل الشَّعبى فقال له : إن كنت صادقاً فغفر الله لى ، وإن كنت كاذباً فغفر الله لك .

وشتم رجل أبا ذر الغفارى فقال له أبو ذر : يا هذا لا تغرق فى شتمنا ، ودع للصالح موضعاً ، فإننا لا نكافىء من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه .

ومرَّ المسيح بقوم من اليهود فقالوا له شرًّا . فقال لهم خيرًا ، ف قيل له : إنهم يقولون شرًّا وتقول لهم خيرًا؟! فقال : كل واحد يُنطق بما عنده .

وقيل لقيس بن عاصم : ما الحلم ؟ قال : أن تصل من قطعك ، وتعطى من حرملك ، وتعفو عمن ظلمك ..

وقالوا : ما قرُن شيء أزين من حلم إلى علم ، ومن عفو إلى قدرة !! .
وقال الحسن : المؤمن حلِيم لا يجهل وان جهل عليه . وتلا قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ (١)

وقال يزيد بن حبيب : إنما كان غضبي في نعلي . . . فإذا سمعت ما أكره
أخذتها ومضيت .

وقال عليُّ : من لانت كلمته وجبت محبته ، وحلمك على السفيه يُكثر
أنصارك عليه .

وأسمع رجلٌ عمر بن عبد العزيز بعض ما يكره ، فقال : لا عليك ، إنما أردت
أن يستفزني الشيطان بعزّة السلطان ، فأنال منك اليوم ما تناله منى غدًا ،
انصرف إذا شئت !! .



إنَّ الغضب مسٌ ، يسرى في النفس كما تسرى الكهرباء في البدن .
قد يُنشئ رَعْدَةً شاملة واضطرابًا مذهلاً ، وقد يشتد التيار فيصعق صاحبه
ويقضى عليه .

ولذلك يرى « ديل كارنيجي » أنَّ التحلُّم مع الأعداء رحمة تلحق بالنفس قبل أن
ينال الغيرَ خيرُها ويدركه برُدُّها وبرُّها . .

وهو ينقل لنا فقرة من منشور وزعته إدارة الشرطة بإحدى مدن أمريكا ، وهي فقرة
تستحق التنويه : (إذا سوَّلتُ لقوم أنفسهم أن يسيئوا إليك ، فامحُ من نفسك
ذكراهم ، ولا تحاول الاقتصاص منهم ، إنك إذ تبيّت نية الانتقام تؤذي نفسك
أكثر مما تؤذيهم !!) .

ثم يتساءل : (كيف تؤذيك محاولة القصاص ؟ . إنها قد تُودي بصحتك ، كما
ذكرت مجلة « لايف » : أن أبرز ما يميز الذين يُعانون ضغط الدم هو سرعة انفعالهم ،
واستجابتهم لدواعي الغيظ والحدق) .

قال : (وأصيب إحدى معارفي بداء القلب ، فكان كل ما نصحها به الأطباء إلاَّ
تدع للغضب سبيلًا إليها مهما بلغ الخطب ، فإنَّ المريض بقلبه قد تكفى لحفر قبره
غضبة واحدة !!) .

(١) الفرقان آية ٦٣ .

ومحافظة على الإنسان من ثورات الغضب ، ومن آثاره البدنيّة والنفسيّة ، قال رسول الله ﷺ : « ثلاثٌ من كُنَّ فيه آواه الله في كنفه ، وستر عليه برحمته ، وأدخله في محبته : من إذا أُعطيَ شكر ، وإذا قدر غفر ، وإذا غُضِبَ فتر » (١) .
وروى أنه قال : « من دَفَعَ غُضْبَهُ دفع الله عنه عذابه ، ومن حفظ لسانه ستر الله عليه عورته » (٢) .

وعن ابن عمر رضی الله عنه قال : قال رسول الله : « ما من جُرْعَةٍ أعظم أجراً عند الله من جُرْعَةٍ غيظٍ كظمها عبدٌ ابتغاءَ وجهِ الله » (٣) .

وظاهر أنّ المرء مع تفاقم الغضب يغيب عنه وعيه ويتسلّم الشيطان زمامه ، وكما تعصف الاضطرابات بمشاعره تُطيشُ لُبَّهُ ، فلا يعي ما يوجه إليه من نُصْحٍ ولو كان من كلام الله وحكمة الرسول .

فقد جاء في الصحيح : استَبَّ رجلان عند النبي ﷺ ، فجعل أحدهما يغضب ويحمرُّ وجهه وتنتفخُ أوداجه ، فنظر إليه النبي ﷺ فقال : « إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه هذا ... أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » ، فقام إلى الرجل أحد من سمع النبي ﷺ وقال له : هل تدري ما قال رسول الله أنفاً ؟ قال : لا ، قال : قال : « إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه هذا ... أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » . فقال له الرجل : (أمجنوناً تراني ؟) (٤) .

وهكذا بلغ الغضب بالرجل يُمهّد النفس لقبول شتى الوسوس ويجعلها بحالة تستسهل فيها أشد الجرائم ، حتى إذا صحا الغضوبُ من نزوتِهِ راح يندم على ما فرط منه ، ولات ساعة مندم .



يقول « ديل كارنيجي » : (فأنت ترى المسيح عليه السلام حين قال : « أحبُّوا أعداءكم » لم يكن يبغي تقويم الأخلاق فحسب ، وإنما كان يبغي تقويم الأبدان أيضاً وفقاً لمبادئ الطب الحديث .

(٢) الطبراني .

(١) الحاكم .

(٤) البخاري .

(٣) ابن ماجه .